

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العبه الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

مرویه

مجلة الأسبوعية ملققة ص ١٢١

نصفه مرقناتی اول کل شهر و فی نصفه

العدد الثاني عشر ٧ جادى الأولى سنة ١٣٥٦ — ١٥ يوليه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى



فهرس العدد

٧١٤	حفلة عرس		لبلاسكو ايبانيز		بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار	
٧٢١	خيانة في رسائل		قصة مصرية		بقلم الأديب نجيب محفوظ	
٧٢٨	يوميات نائب في الأرياف		صور مصرية		بقلم الأستاذ توفيق الحكيم	
٧٣٤	الذباية		للكتابة كاترين منسفيلد		بقلم الأستاذ عبد الحميد حدى	
٧٣٩	ناهض		أقصوصة مصرية		بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني	
٧٤٨	ماتيو فالسكوني		لبرسيير ميرييه		بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب	
٧٥٣	بعد عشرين عاماً		لتوماس هاردي		بقلم الأديب نظمي خليل	
٧٦١	اعترافات فني العصر		لألفريد دي موسيه		بقلم الأستاذ فليكس فارس	
٧٦٨	الأوذية		لهوميروس		بقلم الأستاذ دريني خشبة	



حفلة العرب

للكاتب الإسباني بلاس كواييا بنهر
بفلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

على الزواج للمرة الثانية
ولكى تفهم تأثير هذا
الخبر في قريته يحسن أن تعلم
أن المم سانتو أكبر دافع
للضرائب في الاقليم كله، وأن
له الزعامة في قريته، وأن التي
يريد الزواج منها بنت راع
فقير. وهل تسأل عن المهر
الذي سيقدمه إليها؟ نظرات
ساحرة من عيني سوداوين
طويلتي الأهداب وشعر لامع
رجراج

ولم تكن دهشة القرية
أقل من غيظها، ولا اختلاف
الرأي فيها بين واحد وواحد،
فالكسل يردد جملة بعينها وهي
كيف يتزوج رجل في هذا
العمر من فتاة كهذه؟ رجل

ولد ايبانيز في مدينة بلنسية سنة ١٨٦٧
ودرس الحقوق كمعظم الشبان الثمانيين في
أسبانيا، ولكنه اشتغل بالسياسة في جده
الشباب، ودعا إلى الجمهورية ثاراً ضد نظام
الحكم الملكي في بلاده؛ وتعرضت حياته
للخطر عدة مرات بسبب الثورات الناشئة
من أسباب من بينها دعوته. وبدأ عهده
الأدبي بإصدار مجلدين من الأناضيس التي
يصف فيها حياة أهل بلده؛ وفي سنة ١٨٩٧
أصدر روايته «الكوخ» وهي تعد
خير مؤلفاته، وأصدر بعدها «فاكهة
النبيذ» و«الكندرائية» و«الرمل
والدم». وقد حمل في هذه الكتب على
عادات بلاده. وفي سنة ١٩١٢ رحل إلى
أمريكا الجنوبية، ولكنه عاد قبل أن يتم
برنامج رحلته، وذلك في سنة ١٩١٤
بسبب نشوب الحرب العالمية وبسبب حاجته
إلى المال. وعرض على الحكومة الفرنسية
خدماته كمنشئ للدعاية لقبولها بأجر عظيم
فوضع روايته «الفرسان الأربعة» وقد
اشتهرت في دول الحلفاء شهرة عظيمة، ثم
وضع كتاباً عن الملك ألفونس جعل عنوانه
«ألفونس غير المفتح» فطرد من أسبانيا
وأحدث الكتاب ضجة عظيمة في أوروبا.
ومات ايبانيز منذ سنوات

يملك نصف الزمام، وفي منزله مائة قرية من النبيذ
القديم، وفي حربه خيله خمسة بغال، ثم يترك هذا
كله لابنة فقيرة مثل مارييتا، تلك التي كانت في
طفولتها تحصل على خبزها، كما تحصل الفأرة على
قوتها! مسكينة زوجته الأولى! لقد تركت

- ١ -

مدينة «بنى مصلان»
مدينة أسبانية فائقة يحيط بها
مثل البحر من أشجار
الزيتون والكروم
جدران بيضاء، ونوافذ
مظلمة، وفي الوسط قبة
كنيسة خضراء وحصن عال
كاد يبلية الزمن

مدينة بنى مصلان قرية
ككل قرى أسبانيا متأخرة
مظلمة غير قابلة للتطور، تحكمها
التقاليد المتبعة، ويسودها
سوء الظن والأهواء الجاحمة
والمساوآت والأحقاد.
وأهلها بسطاء لا يبالون بالعالم
ولا بما يجري فيه، مسرفون في
محباتهم وفي عداوتهم وأطعامهم

قرية بنى مصلان وطن «مارييتا»، و«توتي»
و«سجارات» و«المم سانتو» ووطن بضع مئات
على هذه الشاكلة

- ٢ -

«تيوسانتو» أو المم سانتو قد أعلن عزمه

وكان أهل القرية يعلمون فضلاً عن ذلك أن
لمارييتا عشيقاً يدعى توني ويطلقون عليه لقب
« الهلاهيل » لثمالة ملبسه ، وهو مثل حبيبته فقير
معدم ، وقد كاد يتم زواجهما منه لولا أنها أرجأت
ذلك إلى أن يجد عملاً يكتسب منه وإلى أن يتخلص
من أصدقائه وكلهم من عسراء السوء

وكان من أغنى هؤلاء الأصدقاء رجل يدعى
ديوميني يقيم في قرية مجاورة وبأني لزيارته مرة على
الأقل في كل أسبوع

وعلى حين فجأة أصبح أهل الزوجة التوفاة
يكرمون « توني » ويعزونه لأنهم على ما يظهر قد
وجدوا فيه الرجل الذي يصلح للأخذ بثأرهم ؛
وكثر في القرية المغيظة من يكرم توني ويدعوه إلى
بجائسه وطعامه وشرايه

وكانوا يقولون له ليستثيروه : « توني ! أما علمت
أن مارييتا ستزوج ؟ » فينظر إليهم وذهنه شارد ،
وينقل لفافة التبغ من أحد جانبي فمه إلى الجانب
الآخر ، ثم يحدق في قارورة النبيذ ، وأخيراً يهز
كتفيه ويقول :

« هم يقولون ذلك . لقد كان الأولي بهذا الشيخ
الخرف ألا يتكلم عن الزواج إلا بعد تمامه »

وكان في هذا الجواب ما يقنع كل إنسان بأن
أمره سيحدث ؛ وكيف لا يحدث أمر وتوني يتوعد
هذا الوعيد وخصمه ليس بالرجل الضعيف ؟ إن
العم سانتو قد انتخب عمدة عدة مرات . وقد رفع
يده بالعصى على رجال أكبر وأقوى منه لأنهم
وقفوا في سبيله

لذلك كان أهل القرية يترقبون ما سيحدث
باهتمام شديد

قصرها وضيعتها لهذا الزوج القليل الوفاء ، وتركت
للزوجة الثانية فراش منزلها الذي كانت مزهوة
به في الحياة ... هل تعود تلك المسكينة من القبر
لترى ذلك الفراش في حوزة من كان الناس
يتصدقون عليها بالطعام ؟

ابن ست وخمسين يتزوج من أجل الحب !
انظروا إليه كيف يرقص ، وأنصتوا إليه كيف
يتكلم ، وراقبوا النظرة البلهاء التي تبدو على
وجهه . إنه كالشباب الصغير عندما يعالج الحب
المررة الأولى

وانفق أهل القرية على أن العم سانتو فقد عقله ؛
وكان يحدث في الكنيسة في يوم الأحد من كل
أسبوع ما يشبه المظاهرة ، فإن أهل الزوجة
الأولى يحضرون الصلاة ، وعند انتهائها يلتقون
بصهرهم القديم وتثور ثأرتهم ، ويصفونه بأنه
لص ... نعم إن قريبتهم أوصت له قبل الوفاة بكل
ما تملك ، ولكنهما كانت تعتقد أنه لن يخون
ذكرها ، وهاهوذا يدفع بهذه الثروة إلى فتاة صغيرة
— ومن نمط منحط — إن العالم ليعد خالياً من
العدالة ، إذا سمح لابن السادسة والخمسين بأن
يفعل هذا

وكان أهل القرية يجتمعون حول أهل الزوجة
الأولى ، ويبحثونهم على مقاضاة الرجل وفسخ
عقد الوصية

وفي غير أيام الأحد كان مثل هذا الحديث
يدور في المقاهي وفي الميادين العامة والشوارع ؛
وكان يشترك فيه حتى الفتيات من بنات الأسر
الكبيرة اللواتي كن ينفضن أيديهن من حديث
عائني بتعلق بالزواج لولا تحدث كل أهل القرية به

- ٣ -

هذه الكيفية كان القسيس مقبلاً ومعه بقية المدعوين من أصدقاء الأسرتين ورفعت هدايا العرس عن المناضد ووضعت بدلها أطباق الفاكهة والقطائر والأشربة الحلوة

وتنحنجح وكيل المقود ومسح ثيابه بمنديله ووضع حفنة من الرمل فوق الكتابة ليحفظها . وأخذ يتلو ما كان عليه ، فلما وصل إلى اسم الزوج التفت إليه وأحنى رأسه فقهقه المدعوون . ولما وصل إلى اسم العروس التفت إليها وأعاد هذه الحركة فأعاد المدعوون الضحك . ولكن لما وصل وكيل المقود إلى ذكر شروط الزواج فعدد المزارع والمنازل الموهوبة والجياد والبغال علت أوجه الضاحكين منذ لحظة علائم الحسد . وكان الابتسم الوحيد هو الزوج فقد أتاحت له فرصة يظهر فيها غناه ويظهر حسن معاملته لزوجته . أما والد العروس فلم يستطيعا منع دموع الفرح ، وكأنا يتخيلان أن على كل إنسان أن يقول لهما أنهما الأبوان الوحيدان الجديران بالتهنئة فقد ائتمنما على ابنتكما من هو جدير بأن يؤتمن

وبعد توقيع العقد أديرت المرطبات وأخذ دون جوليان يتندر في حديثه بالطريف من القصص والفكاهات ويمرض في سخرية غير مكشوفة بالقسيس

وفي الساعة الحادية عشرة كان كل شيء قد تم . وذهب القسيس والعمدة سوياً . وتقدم العم سانتو إلى وكيل المقود وسكرتيه يدعوهما إلى قضاء بقية الليل بمنزله

وكان الطريق بين المنزل الحقير الذي عقد فيه العقد وبين منزل العم سانتو طريقاً مظلماً ضيقاً .

اشتهر العم سانتو بأنه من الذين إذا قاموا بأى عمل أدوه على وجهه الأكل . وقد ظهر صدق هذه الشهرة في اليوم المحدد لتوقيع عقد الزواج فقد وهب زوجته ثلاثمائة مثقال من الذهب نقداً غير ثياب العرس وخواتم الخطبة والأمشاط وفراش المنزل وهو من مخلفات زوجته الأولى ، وغير تكاليف الوليمة التي دعا إليها المئات ، وغير الهدايا التي أرسلت إلى منزل أبيها على ظهور ثلاثة بغال . ولا تسلم عن المتنازلات وزجاجات المطر والأواني الفضية مذهبة وغير مذهب

وحضر الوليمة كل المشتغلين بالسياسة في الأقاليم وعلى رأسهم نائب البرلمان

وأهديت الهدايا إلى العروس من كبار المدعوين ، فعدت ما شئت من المقود وأمشاط الشعر والمصوغات المختلفة التي كانت تتلقاها وهي شديدة الخجل . أما أمها فكانت تبكي بكاء الفرح . وأما أبوها فقد لزم الصمت لأنه لم يجد الكلمات التي تفي بشكر صهره على إحسانه المتكرر

وكان موعد العقد في بيت والد العروس . وقد عهد بتحريره إلى « دون جوليان » وكيل المقود في القرية ، فجاء مع سكرتيه في عربة نخمة وأعدت له في منزل الراعي منضدة مذهبة عليها أربعة حوامل للشمع من الذهب الخالص . ودخل متكبراً مزهواً ، ومن أحق من وكلاء المقود بالكبرياء وبالأزهر ؟ أليسوا هم المطمعين على أسرار القانون ؟ وأخذ يعل على سكرتيه صيغة العقد وهو يتلفت يميناً ويسرة ، ويرفع النظائر ثم يضعه وفي الوقت الذي كانت صيغة العقد المدنى تمل

لا ينتهي من ذبح الدجاج والطيور . والمم باشكوال
الخادم يبدى مثل مهارة الطبيب في تشريح هذه
الذبائح . وناهيك بشمور هؤلاء الضيوف حين يرون
هذه الضحايا وحين يعرفون أنها طعام لهم وهم
الذين يقضون العام كله لا يطعمون شيئاً سوى الخبز
القفار أو مآدوماً بالجبن أو اللبن

إن مثل هذه الوليمة بعد حادثاً لا يتكرر وقوعه
في تاريخ القرية ، فقد يكون بين فلاحها من يرى
الطعام وهو يطبخ ولكن ليس فيها من يرى في
وقت واحد عشرات القدور تحوى مختلف الطعوم
لتقدم للضيوف بغير حساب . وليس فيهم من يرى
عشرات القرب مملوءة بالنبيذ وايس على الراغب
في الشرب إلا أن يشير فيؤتى له بالخمر المعتقة التي
تقهر نشوتها أكثرهم اعتياداً على السكر وإدماناً .
وأما الحلوى فقد ما شئت من صنوفها المشتهة

لقد كان كل شيء فاخراً فخماً وكان ديوميني
نفسه مغتبطاً بالشراب فهو مدعوٌّ وفي الحفل شراب
يكفي فكيف لا يلبى

وكانت الأجراس لا تزال تدق ، وآن موعد
الموكب فسار ، وكان النساء في الثياب البيضاء ،
والرجال في اللماطف السوداء ، وبين السائرين ديوميني
ورأسه الى الوراء وأنفه متجه نحو السماء . وعلى
رأس العريس قبعة جديدة من القطيفة ، وسترة
ضيقة عند خصرها النحيل ، وبجانبه مارييتا وما أجمل
تلك العروس وما أرشق ! إن أية عروس من أرق
البيوت لا تستطيع أن تظهر في حفلة عرسها بمظهر
أجمل وأروع مما ظهرت فيه بنت ذلك الراعي الفقير
كان على لبتها عقد من اللؤلؤ كعمود الأميرات ،
وعلى كتفها طيلسان من أغلى الحرير وفي أذنيها

وكانت الكلاب تنبح كلما دنا من بعضها فريق
من العائدين . ولكن بقية القرية كانت في
سبات عميق

وكان دون جوليان ومن معه يمشون في تودة
ورفق حذر العثور بحجر يوقعهم في الطريق . وكان
الأول يشعر بقلق شديد من مسيره في هذه الليلة
الحالكة الظلام . وتوهم أنه رأى ما يريب في ركن
من الطريق كأن به أحداً مختفياً يترصد بالسائرين
سوءاً

قال بصوت خافت : « انظروا ! انظروا ! »
وقبل أن يجاب على كلمته انطلقت رصاصة من ذلك
الركن ففزع واستند إلى باب منزل مغلق . وكان
الرصاص لا يزال بنطاق ويصيب الحائط فشمر
جوليان بأن المرق يتصبب من رأسه
أما المم سانتو فكان واقفاً في وسط الطريق
وهو يصيح : « أقسم بالله أني أعرف من الذي فعل
ذلك . إنني عرفتك أيها الكلب القذر »
ثم هز عصاه الغليظة منادياً باسم توفى وبأسماء
أصهاره القدماء أقارب الزوجة المتوفاة
— ٤ —

كانت أجراس القرية تدق منذ آذنت الشمس
بالشروق وكان الخبر بأن المم سانتو قد تزوج
— قد وصل إلى أقصى الاقليم . وكان الفلاحون
مقبلين على ظهور الخيل والحمار ليقوموا بواجب
التهنئة

كان منزل المم سانتو طول الأسبوع الماضي
في حركة مستمرة لا تعرف الهدوء ، وهو الآن مبهث
خبرة شديدة ، فالضيوف مقبلون من كل حدب ، والخدم
غادون راثون بالاطعمة والأشربة ، وجزار القرية

قرطان كانت الزوجة الأولى تقصر تحليها بهما على الحفلات النادرة

وانجه الموكب في أنجاه الكنيسة وكان كل أهل القرية ينتظرون عند بابها ، وكان بينهم بعض أقارب الزوجة الأولى ، وقد استخفهم الفضول فنقضوا العهد الذي كانوا قد قطعوه على أنفسهم بأن يقاطعوا هذه الحفلة

ولكن لما صر العم سانتو أمامهم صاحوا منادين إياه بكلمة اللص ، فلم يجبهم بأكثر من ابتسامة دلت على نهاية الرضى والافتناع

ودخل ديوميني الكنيسة والناس ينظرون اليه ويتفامرون ، وبعضهم يتهمس باسم صديقه توني

ولاحظت العروس توني جالسا في الحانة التي أمام الكنيسة فأحنت رأسها واصفر لونها ولاحظه أيضاً العم سانتو فابتسم ابتسامة المنتصر فأجاب توني على هذه الابتسامة بحركة دالة على الاحتقار ، وآلم العروس أيما ألم أن توجه إليها هذه الحركة في يوم عرسها

وعاد الموكب من الكنيسة فدخل مئات من المدعويين إلى القاعة التي صفت بها مقاعد تحمل أطباق الشكولاته والحلوى ، ولكن الضيوف لم يتناولوا منها إلا القليل خشية من الشبع ، ولم يبق على موعد العشاء غير ساعة واحدة

وظهر ديوميني وفي يده قيثارة يعزف عليها ويصيح بالغناء ، وأقبل القسيس لجلس أمام المنضدة وهو يقول : « إن الشيطان نفسه لا يولم وليمة أبدع من هذه »

وجلس ديوميني أيضاً إلى المائدة ، ولكنه

لم يمد يده الى الطعام اكتفاء بالنبيذ الذي يشرب منه أمام سائر المدعويين ، فكانت أعينهم لا تتحول عن الدجاج . ولأول مرة تناولوا الطعام كما يتناوله السادة ، فأمام كل منهم طبقه الخاص وزجاجة ، وعلى صدره فوطته أيضاً

وكانت مارييتا جالسة بجانب زوجها وهي تأكل مفقودة الشهية ، ووجهها شاحب وقد بدت عليه علامت الألم واضطراب الأعصاب ، وهي تنظر نحو الباب كأنها تتوقع أن يدخل توني بين لحظة ولحظة ، وقد كان هذا الوغد جديرا بأن يقدم على أي أمر

وكانت تتذكر في ألم شديد وداعها إياه في المرة الأخيرة ، وتتذكر قوله لها إن أنايتها ستغاب عليها في يوم ما فتحجره وتزوج من أجل المال

لكنها الآن على رغم خوفها منه كانت مسرورة من توقعها أنه سيفار وأنه سيعمل ماتوحي به الفيرة ، وكان موضع سرورها من هذا التوقع أنه يدل على حبه إياها . وكان يسرها أن تكون محبوبة منه ؛ وإن فقدته فقدان الأبد

وقل ما بقي في الأطباق من طعام ، وضمت الشهيات ، وبدأ التندر بالفكاهات والأحاديث ، وتناول بعض من اشتد بهم السكر العروسين بالفكاهة والمزاح ؛ فتضاعفت من أجل ذلك الضحكات ، وفي النهاية وقفت مارييتا وتناولت طبقاً ودارت به على المدعويين تطلب منهم (النقوط) وسرعان ما امتلأ طبقها بالنقود الذهبية التي كانت تنهال على الطبق ، خصوصاً من أقارب العريس الذين يطعمون أن يتذكروهم عندما يكتب الوصية

بالسمادة . وعلى أثر ذلك عاد المدعوون من المدينة في الأزقة المظلمة وكان وكيل العقود نائماً منذ ساعة في ركن من الغرفة فأيقظه سكرتيره ولم يبق في المنزل غير أقارب العروسين

وأخيراً صاحت أم العروس بابنتها : « وداعاً » ولقد يحال من يسمع صوتها إذ ذاك أنها تودع راحلاً إلى القبر . وأما أبو العروس فكان لا يزال في صرحه وسروره وقال لزوجته : « إنك لم تكوني على مثل هذا الحزن عند ما خرجنا من المنزل ، فلماذا هذه السكابة ؟ » ثم فرق بينها وبين ابنتها وقادها نحو الباب

وذهب كل الخدم الى حجراتهم وجلس المم سانتو ومارييتا في الغرفة المختلة النظام التي كانت فيها الوليمة والتي لا تزال بها الشموع الموقدة . وظلا صامتين مدة طويلة ، ثم أخذ المم سانتو يباهي بانتصاره ثم يثنى على ثياب العروس

أما العروس فكانت تصني وكأنها تمثال ، ولكنها لا تفكر فيما تسمع بل في توني رفيق صباها ودقت الساعة فقال المم سانتو : « الساعة الحادية عشرة » ثم نهض وقال : « هذا وقت النوم » ومشيا نحو غرفة النوم ولكن المم سانتو ما كاد يصل إلى بابها حتى وقف فجأة لأنه سمع أصواتاً غريبة عن بعد تشبهه الدق بمئات من المعصى على الصفيح

واقترب الصوت ، وسمع وقع أقدام وعات ضحكات وسمع غناء ويوميني في وسط هذه الأصوات وصاح المم سانتو بصوته المنكر : « عرفتكم يا خنازير » ثم أخذ يضرب الهواء بقبضة يده وليس في المكان من يرى هذا التهديد غير زوجته

ولم يدفع القسيس غير قرش واحد ، معتذراً بأن الكنيسة لم تعد تملك شيئاً في هذه الأيام التي سادت فيها الحرية

ولما انتهت العروس من طوافها على الضيوف ، ألقت بالمال الذي جمعه في جيبها ، وقد أطربها رذيلته

وأصبحت الوليمة الآن وليمة كما ينبغي أن تكون الولاثم ، فالجميع يتكلمون في وقت واحد ، ثم نهض أحد المدعوين ورمى زجاجته على الأرض فتحطمت ، وكان ذلك دعوة منه للجميع باحتذاء حذوه ، فألقيت كل الزجاجات والأطباق على الأرض

وأراد أشدهم سكرأ أن يبالغ في المزاح ، دلالة على شدة السرور ، فأخذوا يقذفون العريس بقطع من الخبز المكسور ، وسرت المدوى بين الجميع فصاح المم سانتو : « كفوا عن هذا ! كفوا ! » ولكنهم كانوا من القسوة في مثل حالة المجانين ، فاستمروا واستمر يحذرهم حتى استحال صياحه إلى زجاجة ، وحتى هرع النساء اللواتي كن انسجن بعد جمع النقوط ليرين ما الخبر

وأخيراً عاد الهدوء ، عدا أن الصبيان الذين كانوا في الطريق تمكنوا من الدخول عن طريق النوافذ وأخذوا يجمعون ما تساقط على الأرض من الطعام الذي في بقايا الأواني المحطمة . وأخذوا يقرصون أرجل السيدات ، فصحن ، وتذمر المم سانتو فأمر بطرد الصبيان وأبدى لأول مرة تذمره من هذه الليلة

— ٥ —

في نحو الساعة العاشرة عاد المدعوون الذين جاءوا من قرى أخرى وهم يغنون ويدعون للزوجين

بندقيته ويطلق منها رصاصة في الهواء . فامتلات
الغرفة بالدخان وبرائحة البارود ، ووقمت ماريتا
على الأرض وهي في حالة إغماء وخرج المتظاهرون
كما جاءوا

وبعد قليل سمع طارق على الباب ومناد يصيح :
« افتحوا باسم القانون ! »

وتناقل المم سانتو في مشيته وفتح الباب ،
فرأى الجندي ورأى أمام الباب جثة مغطاة بالدم ،
هي جثة توني ، وكان المتظاهرون قد أبلغوا البوليس
أن المم سانتو هو الذي قتله ، وذلك بعد أن رأوه
قد انتحر . فقاد رجل البوليس المم سانتو الى
المحاكمة وهو يصيح : « يا لها من ليلة عرس ! »
عبد اللطيف النشار

ولكن بعد لحظة ظهر في المكان نحو عشرين
شخصاً على رأسهم توني وأقارب الزوجة السالفة
ومن بينهم ديوميني الذي كان طول يوميه يتمتع
بضيافة المم سانتو ويطرب المدعويين بالمزف على
قيثارته . وشعر المم سانتو بالواجب الذي توحى به
العزة والكرامة . أليس هو أم رجل في المدينة ؟
أليس هو الذي اعتاد أن يأمر فيطاع ؟ فكيف
إذن يكون منزله ميداناً لهذه السخرية ؟ أمن أجل
أنه زوج من فتاة صغيرة ؟

وأخذ الجميع ينشدون لحناً محزوناً كأنهم في
جنازة وصوب توني إلى رأس المم سانتو عصاه
وضربه بها ، فتقهقر الرجل في ذلة ، واستطاع
والدم يسيل من جراحه أن يدخل الحجرة فيتناول

شركة بيع المصنوعات المصرية

تعمل على احياء الصناعة المصرية وترويجها

معرض دائم لمنتجات البلاد

تعرض المنسوجات الصيفية

من جميع الأنواع : قطن - حرير - كتان

بضائع جديدة لهذا الموسم

صنع شركات بنك مصر

التي أجمع الكل على متانتها وتفوقها

شاهدوا مبتكرات الصناعة الحديثة قبل شراء حاجاتكم

خيانتة في رسائل

بقلم الأديب نجيب محفوظ

وما أبأسنى . . . ١

« كيف . . . ؟ »

« لن أسعد بقراءة

كلمة لك طوال مدة غيابي ،

لأنك لا تستطيع أن

تكتب إلي ، أما أنت

فتستطيع أن تطلع على

همسات روجي كلما مكنتني الفرص من اختلاس

الكتابة اليك . . . فأينا أسعد حظا . . . ؟ »

« من تواتيه فرص التعبير فيخفف عن

مراحل عاطفته »

وهنا ظلت وجهه سحابة كدر ، وسألها

بعد تردد :

« هل لك أبناء عم ؟ . . . »

فابتسمت ابتسامة دات على أنها مرت للفتان

الذي بعث هذا السؤال وأجابته :

« نعم لي . . . ولكنهم لم يجاوزوا عهد

الطفولة ، ولو كان الأمر كما تتوهم ما أوجب أدنى

خوف أيها الرعديد الغيور . . . والآن هات فك

أودعك . . . وهيا نقول ممّا هذه السكامة الروعة

التي تفرع لها القلوب :

« أستودعك الله . . . »

من الغد يصبح له في قنا حبيبان عزيزان :

حبيبة القلب عائدة ، وصديق الصبا وزميل عهد

الدراسة الأستاذ أحمد مرزوق المدرس بمدرسة

قنا ، ولكنه بينما يتصل بصديقه بالكتابة فهو

محروم بحكم الظروف من تمام هذا الاتصال الروحي

بحبيته ، لأن حبهما ما يزال سرا خفيا كما يذر

بأسره الأهل . . .

وانقضت أربعة أيام على سفر عائدة ، ثم وصله

« هذه أول أزمة تصيب حبيبا ! نعم طالما آلمني

الفراق الهين ، وأجهدني الشوق إلى اللقاء ، وعذبني

الدلال ؛ أما الوداع ، أما الرحيل إلى قنا ، فهذا أمر

جديد ، يدفع إلى نفسى شعورا بالحزن لا عهد لها

به ، فهلا عدت عن هذا السفر . . . ؟ »

« لو كان الأمر إلى ما رغبت نفسي أدنى رغبة

في السفر ، فما أحفل بقضاء الشتاء في أعلى الصعيد

بعض احتفالي بالقرب منك كيما أوصل هذا اللقاء

السميد ؛ ولكن ما حياني وهذا ما يريد أبي ويفعله

منذ أحيل إلى المعاش . ولقد اعتاد أن يمضي شهرا

أو شهرين من الشتاء في قنا عند عمي الدكتور . . . »

« يستطيع عقلي أن يتصور المعجزات ،

ولكن لا أستطيع أن أتصور ما عسى أن تكون

عليه حياتي هذين الشهرين ، فهذا الحب غدا حياة

لشعوري ، وهذا اللقاء أمسى ألفة لنفسي ، أجد فيها

راحة بعد تعب ، وعزاء عن شوق دائم ، فما عسى

أن أصنع . . . بل ما يكون زادي وسلوتي . . . ؟ »

فوضعت بداخري ناعمة على كتفه ، وداعبت

بأطراف أناملها خده ، وهمست في أذنه :

« هذا شعوري وهذا حزني ، ولولا كراهيتي

للمزاء لنصحت لك بالتمزيق والنهائي ، فليس أمامنا

سوى الصبر الجميل حتى ينطوي دهر الفراق

ويتصل جبل اللقاء . . . ومع هذا فما أسعدك

منها كتاب جاء فيه :

« حبيبي حسنى !

أعجب لهذه الوحشة كيف تجثم على صدرى وأنت مى . . . نعم أنت مى لم تفارقنى لحظة سواء فى ضجيج النهار أو فى سكون الليل ؛ مى وأنا أرسل الطرف من نافذة القطار أشاهد الحقول الممتدة وأشجار النخيل المبعثرة ؛ مى وأنا بين أهل حمى ألتقى الأحاديث وأرد عليها ، وأضحك هذا وأسمع لذلك ؛ مى فى كل مكان وكل حين ، فلا عجب لنفسى بعد ذلك أن هزها الحنين إليك أو استشعرت وحشة وضيقا فى البعد عنك ، أو ألهمها الشوق عذاباً وجوى

وأرجو ألا تهمنى بالتكاسل عن الكتابة إليك فبيت عمى عامر بالأطفال وهم لا يتركوننى لحظة أدخلوا الى نفسى ؛ وقد انبعثت كلمات هذا الكتاب من شعورى وامتلأ بها عقلى وتمثلت فى حواسى وحفظتها عن ظهر قلب قبل أن تؤاتينى الفرص فأسطرها لك خلصة على ضوء القمر المتسلل من نافذة حجرتى والعيون قد أغمضها عنى المنام . . . فاعذرنى إن تأخرت عنك رسائلى وأرجع إن شئت إلى قلبك فاعتقداى أنه على عليك عن لسانى ما أحب أن أقوله لك دائماً

أما عن قنأ فجوها دافى جميل ، وخلا ذلك فنحن فى منفى ، ولولا ما يربحه أبى فيها من صحة وعافية ما تركته يسكن إليها لحظة من الزمان «
فأخذ من الكتاب كل ما استطاع أن يمنحه من المزاء والسوة والسعادة

وكان صديقه مرزوق لا ينقطع عن مراسلاته وإن خلت كتابته من الطرافة والجدة ، فهى التحيات المحفوظة وبث الأشواق والتلهف على

إدبار العام الدراسى وإقبال العطلة الصيفية ، إلا أنه أضاف الى هذه المحفوظات فى آخر كتاب له مانصه :

« طالما قلت لك إنى أعيش فى قنأ كما عاش أبونا آدم قبل أن يخلق الله منه أمنا حواء ، لا يقع بصرى على وجه امرأة قط ، وإن كنت أرى أحياناً بعض الأصدقاء يشيرون إلى كتلة من الثياب السوداء الملفوفة تسير كعمود من الدخان الكثيف وأسسمهم يقولون : انظر الى هذه المرأة . . . ولكن وقع بالأمس ما يعد حدثاً تاريخياً فى حياة قنأ ، إذ حضر الدكتور سامى حسنى مفتش الصحة الى البستان المسمى وفى صحبته غادة جميلة سافرة الوجه ، فهز البلد وزلزل كيائها . إنه رجل جسور لا يهاب أباراء المزمتمين ، وتجدد دائماً على استعداد للرد على تطفل المتطفلين بما يجمله مثلاً وعبرة ، ولم يلبث أن شاع الخبر وملا الأسماع فهرع الشبان الموظفون من مدرسين ومهندسين وكتبة الى البستان وهم يسوون أربطة الرقبة ويحكون أوضاع الطربوش على رؤوسهم ، فلورأت البستان حين ذاك لحسبته حديقة غناء فى مصر الجديدة أو قصر النيل إنها شابة جميلة تحمل فى طياتها عطر القاهرة العبق ، فليهنأ قنأ بهذا القطر العذب . . . »

نفخ قلبه لدى مطالعة الكتاب ولم يداخله أدنى شك فى معرفة صاحبة الشخصية الجميلة التى أثارته لوعة الشباب فى قنأ

ياله من كلام يحمل فرحاً وألماً والألم فيه أكثر ! أيجوز أن تسعد قنأ ومن فيها بحبيبته ويبقى هو فى القاهرة تسيل نفسه حشرات عليها . . . وهم أن يكتب لصديقه كتاباً يملأه فيه بأن الفتاة التى هز مقدمها قنأ هى حبيبته اليوم ، ثم خطيبته وزوجه غداً ، ولكنه جفل من هذا

ولتعلمن بعد حين في أى غيباً من غيبي القدر كانت
تنتظره هذه المفاجآت ... »

ما هذا الذى يقول مرزوق من أن عينيه
تجذبان إليه عينيه ؟ . إن لعيني مرزوق أن تجذباً
كيف تشاءان . أما عينا صاحبه فما بالهما تنجذبان
وتستجيبان ؟ ... هلا يكون ذلك مجرد نظر برىء
فسره صديقه على ما يهوى غروره ويحب ؟ ...
إنه لا يشك أبداً في إخلاص عائدة ، ولكن ينبى
ألا ينسى أن لصاحبه عينين جيتان يحس الناظر
إليهما سخونة في أعصابه ولذعة في قلبه ، وهو
— إلى ذلك — مدرس محترم من حملة الدبلومات
العالية ، ومن ذوى المستقبل السعيد . أما هو فلم
يزد على أن يكون موظفاً صغيراً ، كل مؤهلاته
شهادة البكالوريا ، ومستقبله مظلم محدود ، أفلا
يكون لجميع هذه الفوارق أثر في الحب ؟ ..

إنه يشعر بحزن عميق يخيم على نفسه فيجمعها
من الكآبة كنفس هرم متشائم ، ويحس بسم
الغيرة ينطلق من قلبه ويلوث دمه ... أوامه ... إن
أحلامه وآماله تترجى على كف رجيم ...

وفي ذلك الوقت أتاه كتاب من عائدة ،
فانكب عليه بالهفة ، وتلاه مرة بعد أخرى ، ولم
يكن يخرج في معناه عن رسالتها الأولى ،
فتزعزعت شكوكه ، وعاودته الثقة ، وذاق بعض
الطمأنينة والشفاء ، وحمل غرور صديقه إثم ما جنى
عليه كتابه من الشك والماذب ، ولكنه تسلم
رسالة من صديقه بعد ذلك بأسبوع ، جاء فيها :
« كن على يقين من أن العاطفة النامية لم تعد

قاصرة على جانب واحد ، فمينا الفتاة — واسمها
عائدة — تقف جان الحاضرين من الشبان وتستقران
على أنا . إلى أطالع في وجهها عند حضوري سيما

الاعلان ووجد رغبة خفية أن يكتبه إياه وأن يطالب
منه أن يوافيه بأخبارها التي تستحق الرواية والحديث
لقد تردد لحظة وطرح على نفسه هذا السؤال :

ألا يعد هذا تجسسا منه على حبيبته ؟
وهل يجوز هذا في شرع المحبين ؟ ... أو ليس
الأفضل أن يربأ بنفسه عن أن يضع صاحبه موضع
الاتهام والظنة ؟ ...

ولكن عاطفة الندم هذه لم تستطع أن تقهر
عواطف قلبه الجياشة السوداء فطردها من نفسه
وكتب إلى صديقه بما أमत عليه شكوكه من
بأدى الأمر

وبعد حين وصله كتاب ثان من صديقه جاء
فيه عن عائدة ما يلي :

« تفتير كل شيء في قنا وكل شيء في حياتي .
لم تعد قنا قبراً موحشاً فاغراً فاه مكشراً عن أنيابه ؛
ولم تعد حياتي سأمًا ثقيلاً متصلاً . كيف لا يكون
هذا وأنا مطمئن إلى أني سأحظى أصيل كل يوم
برؤية ذلك الوجه السافر المبتسم الذى يحيى موات
النفوس ، ويبعث مصفر الأمل ... ما أجمها ،
وما أعذبها ...

علمت الآن أنها ابنة أخى مفتش الصحة ، أو
هذا ما علمته قنا عامة وعلمه شبابها خاصة . إن
جميع العيون تلهمها التهام الجوع ، فامل هذه
الصنجة تثير الغيرة في نفوس الآباء الموظفين ،
فتشجهم على الاستهتار بتقاليد الصعيد وأهليه ،
وإبراز بناتهم للعيان ، ومهما يكن من الأمر
فنحن الرابحون

لا تخش على أخيك من قهر ، فهو بطل صنديد
وشخصية لا يشق لها غبار ، وإن عيني لتنفذان
من بين العيون جميعاً وتجذبان عينيهما إلى ، فصبراً

بالحقيقة السافرة ويضع آماله بين يدي شهادته وما يمهّد فيه من الاخلاص والروءة ، ولكن كبرياءه تأبى عليه أن يكون في حبه من المسترحمين السائلين ، وهو يندفع برغبة جنونية نحو جحيم العذاب كأنما غدا يستطيب النار الموقدة ؛ وأبى إلا أن يعرض حبه لأقصى امتحان . فاما إلى نعيم الطمأنينة ، وإما إلى أهوال العذاب ، وعليه فقد تمالك وكتب إلى صديقه :

« إذا كانت ثمرة الحب ناضجة فاقطفها بلا تردد ، فان حكمة الدنيا لتذوب حسرة على ثمرة حب ناضجة يزهد فيها الانسان ، أقدم ولا تبال بالنتائج البعيدة ، وتمتع بالحب في منفي قنا ولا تحمان نفسك هموم التفكير في الغد ، ولا تغفل عن ترويدي بكل جديد فاني أصبحت من تتبع حبك على حب شديد »

وانتظر رد صاحبه بصبر نافذ وجزع لجوج ، حتى وافاه منه كتاب جاء فيه عن عائدة ما يلي :

« بورك من حكيم سديد الرأي ! لقد اتبعت نصحتك أيها الأخ ، وضربت لها موعداً همساً ، ووافيت إليه في صباح اليوم الثاني وأنا حائر بين الشك واليقين ، بين اليأس والأمل ؛ ولكن لشد ما كان فرحى عند ما رأيته قادمة ! والحقيقة أنها كانت مترددة مذعورة على رغم خلو المكان الذي يوحى بالطمأنينة في خفية عن أعين الرقباء ، وبلغ بها الذعر أنها صرت بي غير ملتفتة إلى يدي الممتدة كأنها جاءت لغير موعدي ، فتبعتها وحييتها وطمأنتها حتى قالت لي مضطربة :

« لا أدري كيف جئت .. كيف أطمئك .. إنني مضطربة .. » فهدأت خاطرها وسكنت اضطرابها ولاطفها بما أوتيت من بيان ومران وحماس حتى أفرخ روعها واطمأنت

الشوق والتطلع تحاول أن تخفيها بعدم اكتراث مفتعل ، وأقرأ في عينها استجابات خفيفة لرسائل الصامته اللثيمة ، وأستشف أحياناً على فمها ابتسامات خفيفة ، ولعلها تخاطب عمها أو أحد أبنائه الصغار بصوت مسموع وهي تعني . لا تدهش لأقوالى هذه فاني أطاردها في إصرار ، وأتبعها في عناء ، وأخطبها بصوت مكتوم تنبي عنه شفتاى المتحركتان ، وأبث إليها باشارات الشكوى والرجاء ، وقد اقتربت منى مرة وهي تلاعب طفلاً من أبناء عمها وسمعتها تقول له أولى إن شئت : « دائماً في أعقابى ، فإذا تصنع لو رجعت الى مصر ؟ ... » . فقلت لها بهمس مسموع : « لعلك لا تعودين ... » ، إنها كلمة ذات مغزى خاص إذا قالها شاب أعزب موظف مثلى . وقد كان لها الأثر الجليل . والآن أفتنى فانك خير طبيب عالم بأحوالى ، هل أقدم أم حسبي ما ذقت من لذة بريئة وأولى ظهري ودأ لن ينتهى بالنشام ... ؟ إن ثمرة الحب ناضجة دائية تنتظر من يقطعها فما رأيك ؟ ... »

يا للظلام ... يا نالماً الساخر ... عبتاً يحاول دفع هذه الآيات بالشك والتكذيب ، فمائدة بلا ريب هي التي لا تستطيع مغالبة الشوق بالتستر وعدم الاكتراث المفتعل ، وهي التي تحدث الغير وتعنى المجدود من الرجال ، وهي التي تجيب عيناها الاجابات الخفية ... وهي تسكرها سيرة الزواج فيا للظلام ويا للخيبة القاتلة ... والأدهى أنه يريد منه أن يكون مستشاراً في مأساة قلبه ... ولعله يرجو أن يشير بما يقطع خيط المنكبات الذى يمسك بكفة أحلامه وسعادته .. فيالآخرة ! من المستطاع أن يحاول انقاذ سعادته فيعان صديقه

وكتب إليه في رسالة أخرى :

« معدرة أيها الصديق عن تأخير غير مقصود ؛
والحق ماذا أقول لك ؟ .. فالحياة الجميلة هي ... ،
لقاء فأحاديث ، فداعبات فتقبيل وعناق ، فوداع
واقاء . إنها غدت مجنونة بي ، وكما صرت ساعة
اشتد بها الجزع وتكاد تنطق جوارحها : أن اذهب
إلى والدي وخاطبه في حبنا لأكون لك طول العمر
إنها أمنية طبيعية ولكن ما كل ما يتمنى المرء
يدركه .. »

ثم كتب إليه بعد حين :

« قومت الألفة تلعم الحياء وصيرت التلميح
تصريحاً وأمست عائدة تاج على أن أكرم أباه
لتتخذ علاقتنا الصبغة الشرعية القدسة ، وكانت
حياتي تكون السعادة نفسها لولا هذه المنقصات
والحق أني أجد بين يديها سعادة صافية جعلتني
شديد العطف عليها ، وبعثت في الضمير ألماً مبرحاً .
وإنه ليسوءني ما أبيت لها من نية القدر والهجر
لأنني في الحقيقة لم أرفها أكثر من ملهاة ممتعة
أسكن إليها في هذا المنفى القصي . وما أشبه غرامي
هذا بفرام الرحالة الجواب تتعدد وعوده تعدد
ما يجوه من البلدان . وما يثير النفس يا صديقي أني
— أول أمس على أثر عودتي من لقائها — جلست
إلى مكتبي شارداً أقاب بعض الكتب فما راعني
إلا ديوان شوقي تنشق صفحاته عن صورة حفظها
فيه وكدت أنساها ، هي صورة خطيبي بوجهها
الصبيح الجليل وقد سطر على ظهرها بخط جميل
« تذكر الوفاء » فكانه سوط عذاب ألهمني نارا ،
ألا فليغفر الله ما تقدم من ذنبي وما تأخر أيتها
الحبيبة ! والحق لقد اضطرب فؤادي وألقيت على
الصورة نظرة دغر سريمة ثم أخفيت عن عيني أو
أخفيت عيني عنها لأنه وقع في نفسي أنها تعلم بخبيثتي

لقد تحدثنا طويلاً ، بل طويلاً جداً ، ولو أردت
أن أسطر لك ما دار بيننا ما انتهيت وما وسعتني
الأسطر ؛ فحسبك أن تعلم أنها فتاة جميلة رشيدة حلوة
المعشر ، متهذبة الطباع ، وإن كانت تغلب عليها حدة
الاحساس وتوقد العاطفة والذهاب مع الخيال .
وقد حامت بمهارة حول موضوع الزواج فجاريتها
بحفة ولباقة لانهويان بها إلى قرار اليأس ولا تعلمان
بها إلى عقد الميثاق ، وعند الافتراق تناوات منها
قبلة شبيهة خات لحلاوة جدتها أنها أول قبلة
تناها شفتاي ... »

انتهى الأمر ، وتبددت الأحلام ، وخابت
الآمال وقضت على قلبه الذي انتهى طويلاً بأفراح
الحب أن يتجرع آلام اليأس والخيبة

وانقطعت عنه رسائلها ولكنه كان على علم
متصل بأحوالها من رسائل صديقه التي جاءتته تترى
وقد كتب إليه في إحداها :

« أما — باختصار — سميد جداً ، فحياتي
ملينة بالهجة والمسرة ، وعائدة خير غناء عن
الوحدة والوحشة في هذا المنفى السحيق ، وإني كلما
أذكر أني سأحرم هذه النعمة بعد شهر يشيب شعري
من الهول ، وأضعضع إلى صدري بشغف ، وأنهم
منها قبيلات ملتهبة كأنني أختزن منها ما أعود إليه
عند الفراق . أما هي فتمتد أنها لن تعود إلى القاهرة
أو أنها تعود لكي ترجع إلى إلى الأبد ، فمن يدريها
أن لي خطيبة تنتظرني في القاهرة من سنوات
طويلة ... »

وهذه المناسبة أقول لك إن عائدة من اللاتي
وهبن الله دلالاً وفتنة ، ولكنها على قدر غير هين
من الاستهتار والنزق ؛ أما خطيبتني فشابة حبيبة
هادئة الطبع وعلى خالق عظيم ، وإني أدخرها للزواج
وأنا سميد »

من هذه الفتاة النافهة الثمارة التي لم يميزها الله إلا بظواهر الجلال المبتذل لا يلبث أن يتبخر أثره في الهواء . ومهما يكن من الأمر فإن ينقضي أسبوع حتى تكون الأنسة عائدة في طريقها إلى حيث ألفت »

قرأ جميع هذه الرسائل - رسائل صديقه وقائله - بامعان شديد

وكانت تتسلط على نفسه في ذلك الوقت عاطفتان : عاطفة حزن عميق وشهور حاد بالخيبة والغيرة وانهباء الأمل جعلته لا يذوق لذة في البقطة ولا راحة في السهاد ، وعاطفة تشف وانتقام أن تنتهي بها الخيانة إلى مثل ما انتهت به الحال من خيبة أمل وانهباء صرح سعادة ...

ولم يفرط في واحدة من هذه الرسائل التي سجلت تاريخ أكبر هزة عنيفة امتحن بها شبابه فجعلها في رزمة وحفظها في حقي عابى جميل ووضعها في مكان أمين وانتظر ...

جاءته رسالة مقتضبة من عائدة نفسها تملنه بقدمها وترجو أن يذهب للقائها في موعدهما الموعود عند العصر ...

وفكر في أمره طويلاً ، تفكير من تسيطر عليه عاطفة مسمومة ونفس جريحة حتى انتهى من أمره إلى تدبير ، فذهب إلى الموعد في الساعة الموعودة ، ولم ينتظر هذه المرة لأنه وجدها في انتظاره ، واستقبلته بيدين مفتوحتين وابتهامة مشرقة ، فضمها بين ذراعيه وأثم شفيتها وهو يتسم ابتهامة كلفته غالبا من الجهد وضبط النفس

وجلسا إلى نفسيهما كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي السعيدة ، وسمها تقول بفرح قائل : « وأخيراً »

وأنها تصوب نحوى نظرة لا تمش أمامها الخيانة » وكتب إليه في رسالة أخرى يقول :

« لست فتى عصرياً كما كنت أعتقد ، ولو أنى كنت كذلك لما هالني الغدر ولا كبرت على نفسي الخيانة واسهل على اصطناع الوداد للفتيات اصطناع تحيات الصباح والمساء ، ولهذا تجدني معذبا موزع القلب فلا أنا بالراضى على نفسي لأنى نكثت ميثاق خطيبتى ولا أنا بالسعيد بما ألقى من حب عائدة التي رماني تفانيها في هاوية من الندم

ولا يخفى عليك أن الملل عرف طريقه إلى نفسي وأنى بت منه في سقام ؟ وقد كانت ذلك مقدوراً ولكن ما الذى عجل به ؟ .. لعله ذكرى خطيبتى ، أو لعله أنى أقبلت على عائدة إقبال منهوم جائع فامتصت حلاوتها في رشفة ، أو ربما كان ذلك لأن جلالها طلاء لا يخفى من ورائه شخصية ذات بهاء وجلال » ثم كتب :

« أمسى اللقاء غير ذى متعة ، لأنى من ناحية بت أعانى من السأم وارهاق الضمير ، ومن ناحية أخرى فالفتاة تصر على مخاطبتى في شأن الزواج ولا تسكاد تصبر عن هذا الموضوع فرمت بي في الحرج والحيرة ، وبنتهى موعد اللقاء ونحن لم نفرغ من الجدل العقيم والتضييق السقيم والاعتذار والتهرب المفضوحين »

وأخيراً كتب إليه يقول :

« لأول مرة أخاف الميعاد ، وإنى لأعذر نفسي وأعبطها ، وأرجو أن تفهم الفتاة أن هذا منى اعلان بالقطيعة ، ولم يكن من هذا بد بعد أن بلغنا في علاقتنا موضعاً ينبئ أن يتقرر فيه المصير ، فاما إلى يمين وإما إلى شمال ، وما كان ينبغى أن أختار من جديد ، وما أحببت ذلك قط فان خطيبتى تنتظر أوبى بفارغ الصبر وهي أكرم على نفسي

فاعتقادی أنه لدينا ما يلد لنا حديثه أكثر من هذا ... »

« طبعاً .. طبعاً .. ولكن وأسفاه قد قدر على أن أحرم هذه اللذة الليلة .. لأن أمي مريضة وينبغي أن أكون إلى جانبها سريماً فلنؤجل هذا الحديث المنعم إلى المرة القادمة فنظرت إليه قلقة وسألت :

« مالك ؟ لست كمهدى بك ! تقول إن أمك مريضة ؟ لا بأس عليها .. أمضطر أنت إلى الذهاب إليها حالاً ؟ »

إنه يحس برغبة شديدة تدفعه إلى الانفجار لينفخ عن صدره بعض غليانه المكتوم وحقيقته المدفون ، ويود لو يجبه هذا الرياء بما عزق قناعه ويهتك ستره ويفضح شناعته ، ولو فعل ما جنى على الرحمة والمدالة ، فن حقه أن يصب جام غضبه ويثار لآلام قلبه ويعحق الخيانة والمكر السيئ

ولكنه كان قد انتهى من أمره إلى مرأى لا يريم عنه ، وكان بطبعه هادئاً رزيناً كتبوا ما يبد فيه العقل الهوى وتتغلب لديه الحكمة على الثورة ، فغالب دواعي الغضب في نفسه حتى أسكنها وقال بهدوء غريب : « إنى تمب مهموم مكودود الذهن ، ولولا شدة توقى لرؤيتك ، ما هان على أن أغادر أمي ، وهي طريحة الفراش ... فلنفرغ من هذا اللقاء ولو على مضض ... والآن اسمح لي أن أقدم إليك هدية جميلة : هذا الحق العاجى ... ورجائى ألا تسميه إلا حين خلوتك إلى نفسك في غرفتك لتحظى بالمفاجأة السعيدة في غيبة عن أعين الرقباء ... وإلى اللقاء القريب أيتها الحبيبة ... »

نجيب محفوظ

ليسانس آداب — القاهرة

فردد قولها : « وأخيراً » ثم نظر إليها بعينين مبتهجتين تخفيان دهشة وقال لنفسه : يا عجبا ! ما أقدر كن أيتها النساء على إخفاء مشاعر كن وتكلف ما ليس بكن !

وانطلقت هي تقول : « أستطيع أن أخبرك كم ثمانية غبتا عنى طوال هذه المدة الثقيلة لأرجعها الله »

« الذى يبدو لى أن استغرافك فى حساب الزمن شغاك عن الكتابة إلى »

« أتسخر منى ... آه لو تعلم كم كانت تكلفنى الرسالة أكتبها إليك ! كنت أتسلل إلى مكان قصى بالبيت كى أخفى نفسى عن أعين أبناء عمى ... فيجدون فى أثرى ويبددون عزائى ويفزعون أخياتى المنسجمة وعواطفى الحارة ، فاذا انتهيت منها احترت كيف أسلمها إلى صندوق البريد »

« ألم يكن الخروج هيناً عليك ... »
« أحياناً مع عمى »

« لم لم تخرجى فى الصباح وعمك فى عمله والجو خال ؟ .. »

« لو فعلت لكان أمراً مثيراً ... والشبان هناك جائمون أراذل عديمو الشرف ... »
« يا سلام ... ! »

« نعم يا عزيزى ... »
فهز كتفيه وقال وهو ينهم فيها النظر :

« أرى عذرهم بيذا ... فن بطالع هذا الوجه الجليل ولا يقهر على الحب قلبه ؟ ولكن ماذا صنعوا معك حتى استحقوا عندك هذا الحكم القاسى ؟ »
فصمتت لحظة ثم قالت :

« إنها صغائر مألوفة لا يبنى عنها الشبان ... ولكنها ليست بذى بال ... فلندع هذا الآن ... »

وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطر ميز الحامى « لمينات » القى والبراز لارسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر اليهم ، وقص جيبوبه وإرسالها كذلك داخل أحرارز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيراً ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيبوب . وناديت كاتب التحقيق وأمرته بتهيئة اللازم للقيام وطابت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة وأندكر ما فيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما بلى : « فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحرارز إلى القلم

الطبي الشرعى ... على النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العموى ... الاستمارة الآتية بعد استيفاء جميع الخانات بالضبط :

(١) تاريخ التبليغ عن الحادثة

(٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته

(٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل

الاصابة ؟

(٤) الأعراض التى لوحظت : كآلى ، الاسهال

الآلم ، العطش ، ألم الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرق ، التيبس حالة الحذقتين ، النبض ، التنفس ا

(٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص

فى فمه من الطعام ؟

(٦) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل

بلسانه أو أطرافه ؟

(٧) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟

(٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات

بالفضلات ؟

(٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟

(١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه

هذه ؟



يَوْمِيَّانَا فِي الْإِرْيَافِ

لِلأَسْتَاذِ تَوْفِيقِ الْحَكِيمِ

٢١ أكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشرف فنجان القهوة على مكنتى حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم فى دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهى تهمه بسمها للنخالص من النفقة الشرعية . كلام موقوف . ومسألة تستدعى التحقيق من غير شك . ولكنى من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم . وما فيها من « قرف » خصوصاً على الصبح . وأعلم أنى سأنقل فأجد امرأة عاتمة فى بركة من القى والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالاً تلقيت جواباً لا من الكلمات بل من الد... أعوذ بالله ! ولم أملك وأخرجت مندبلى وبصقت فيه . وجمعت أفكر فى إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبت به بالفعل فحضر فسلمته الإشارة ، فر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ! وأنا عمري حققت قضايا تسمم أو

حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر موقوف . خصوصاً التسمم . حتى أما القديم المنمرن ، لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومضى « الاستمارة » المنصوص عنها فى تعليمات النائب العموى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لا بد من سؤالها وتلقى الجواب عنها .

وقلت المساعد أن يذهب هو لحضور التشریح وإفادتي بنتيجته بمجرد الفراغ منه . ففضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التي أكلت الفطيرة ؛ وكان الأمر فعلاً كما توقعت : وجدت المرأة في حن الدار وحولها جارائها لم يتركن فيما يحيل إلى آنية ولا « حلة » ولا « كروانة » في الحارة إلا أنين بها ووضعها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوى وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم منها أن يفتتح المحضر ، وتقدمت بين الأواني الملوئة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :
— اسمك وعمرك وجنسياتك ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقاص العضلات أنها فهمت عني . فأعدت عليها الكرة في شبه صياح ، فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع في قء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يستندن رأسيها المائل بأكفهن ، وهن يتهايمن :

— أيوه يسبها في غلبها !
فأجبت مؤمناً على منطقتهم وكأني أخطب نفسي :
— والله كان بودي أن أتركها في غلبها ، لكن أعمل إيه ؟؟ قلم النائب العمومي في انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنة بين النسوة وقالت لي :
— « من ادلعدى » حضرنك طالب تعرف اسمها ؟ اسمها نبوية

— نبوية إيه ؟
— لا ما نعرفش غير نبوية . أهى في الحارة كئنا نقول لها تعالى يا نبوية روحى يا نبوية
ولكن هذا لا يكفي . ولا بد من كتابة اسمها كاملاً . فتوسلت إلى النسوة أن يساعدننى على حملها على النطق دقيقه واحدة . فتكأرن عليها ورفعن

(١١) الفترة بين تماطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟

ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم أى أنه لا يقال مثلاً بعد اليوم الثانى بثلاث ساعات أو في يوم (الاثنين) بل يقال مثلاً ابتدأت الأعراض في الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك في الساعة ٣ مساءً أو صباحاً بالضبط ...
شئ جميل جداً !! كل هذه الأسئلة ينبغي أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت في الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغي أن يقال مثلاً في يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الفارق في متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنماس الخ الخ . باعتراف الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التي لا تحمل في جيبها ساعة وربما لم تر في حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت في الساعة ٣ والدقيقة بالضبط !!

النهاية . قمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معي المساعد يشاهد حتى تزول حجته في المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقات :

— نهار باين من أوله !
وقرأت فإذا هي إخطار من المستشفى الأميرى بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وظللت قلماً وأشرت في الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة في مثل هذه الحالة : « نأمر بتشریح الجثة » .

رأسها الذي لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمس
في أذنها يرجونها الكلام وإجابة البسك النياية .
وبعد ساعة بالتمام حركت المصابة شففتها فاستبشرت
النسوة وشجعنها رابات على كتفها :

— أيوه ... أيوه ردى علمينا يا حبيبتي !

فأمرعت أصبح قرب أذنها وقد تصبب
المرق مني :

— اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأذنت وزامت وقالت في صوت خافت متهدج :

— اسمى ... نبوية

فكذت أشق ثيابي :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن

نبوية إيه ؟ اسم « أبوك » إيه ؟ أنا فى عرض

« أبوك » ! نبوية إيه ؟ والسكى أخاطب وأتوسل

إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها

من جديد . ولزمت الصمت إلا من ذلك الأنين

الخافت . وبلغ مني اليأس والضيق ، فصحت

في النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهضنها مرة

أخرى ومسحن صدغها بالماء البارد وناجيها

بالكلام المذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها

كاملاً . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة !

وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا

المجهود ، فكيف بالباقي ؟ خصوصاً السؤال الأخير :

بيان الفترة بين تماطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور

الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة

ومساعات معينة كما تقول الملاحظة ! : أى أن هذه

المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكها إلا بعد أن

كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة

والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض

أول ما لاحظت ؟ شىء جميل ، أما مجنون أسأل هذه

الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلي هؤلاء

النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتناق من هذه الطريقة

جواباً بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين

تماطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام

الطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة

فى صفاء وهدوء بال بعيداً عن مناظر القى والاسمهال :

وأومأت إلى السكاتب أن « اقفل المحضر » وأفهمته

أن المصابة لم يمكن استجوابها واكتفينا بأخذ

« عينات » القى والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم .

ثم عدنا إلى دار النياية حيث ارتعيت على مقعدى تمباً

أغمضت عيني قليلاً ؛ ثم فتحتها على صوت

الباب يفتح وقد دخل منه مساعدى أصفر الوجه .

فأوقفت من خمولى فى الحال وابتدرته :

— مالك ؟

— التشرح

— آه حضرت العملية ، والنتيجة ؟؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسي قريب ؛ فحدثت بنظري

ملياً فى وجهه . فقهمت كل شىء . إن هذا الشاب

قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة

تشرح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى

خرج بالأمس من بين الكتب ؛ تلك الكتب التى

أرتنا وأفهمتنا أن الانسان شىء عظيم ، إنه هو

محور الكون ، وأنه المصطفى الماحوظ دون بقية

المخلوقات بمعناية الخالق الأعظم ، وأنه الكائن

النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الانسان

لم يتح الكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من

الداخل ؛ فإذا ما اطلع أحدنا على ذلك سرت فى

نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج

الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى ان أنسى أبداً

يوم وقفت المرة الأولى على رأس جثة رجل أصيب

فى دماغه بمبار نارى أطلق عن قرب فكسر

الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛ وحضر الطبيب للتشريح فقامت معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط الذي وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهي دار قروية متواضعة ، وجىء بالقتيل بحمله أهله وقد لقوه في لحاف جديد « بيوشه » ، ومن حوله النسوة بموبلهن وصياجهن وطيهن يلطخن به وجوههن وكان ممي مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأنوا « بطشتين » كبيرين وضعوها تحت « دكة » عريضة من الخشب في صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق « الدكة » وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت جديدة احتفالاً بعيد الفطر ، إذ وقعت الجريمة في اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحمل العيد وغريمه على قيد الحياة ، وحرصاً منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة في رأس القتيل ، ورغبة منه في أن تتغير نغمة أصوات العيد وأنشيدته المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطبيب الشرط حالا في رأس القتيل وهو على السكاتب : — ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعاً) وعندئذ علا صياح النسوة ، وكن قد تسالطن وتساقن سطح الدار والأسطح المجاورة « المعرشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتاً رفيعاً حاراً مؤثراً أوجع قلمي بصبح : — يا شجرة و « مضللانا » يا بوي ! وتلاه صوت آخر في مثل وفه ولهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

— ياللى كنت خارج بسجورك في بطنك يابيه
وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه في فتحة الجرح يسبر غوره ويمرر حدوده ، وأملى الكاتب :

— جرح نارى طولہ اربعة سيمتر . . .
وحاول أن يثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع فتناول منشاراً من المعدن من حقيبته وجعل ينشر الجمجمة من الجهة ليفتح الرأس فلم ينجح في نشرها أصلاً فآخذ مطرقة صغيرة من بين أدواته وطقق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبه « سردين » وسمعت إحدى المعجائر ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك اللق و « الهبد » في رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :

— اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزني . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك المعجوز ما زالت تمتدح أن رجلين هو رجلين بشخصيته وآدميته ، أما أنا فنذ لحظة قد بدأت أشك في ذلك

وتم نزع الغطاء أو « القراءة » ، وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذي فوق المخ مباشرة ، فزقه الطبيب بمنشره ، وجعل يفحص ماحول الجرح وهو على :

— تريف دموى شديد بأنسجة المخ . . .
وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئاً . واستمر في البحث حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يثر للرصاصة على أثر . أين ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقدوف خرج منها . ولما بيأس الطبيب . وقال لي باسم : إن المقدوف الناري يتخذ أحياناً خطوط سير عجيبة في جسم المصاب وأحياناً تدخل الرصاصة من البطن فلا يثر عابها إلا في الفخذ . قد يكون هذا معقولاً . ولكن رصاصة تدخل من الرأس تستخرج من القدم ! هذا شغل « حواة » ولا أصدق أن الرصاصة لها كل هذه القدرة . واستاء الطبيب أخيراً وصاح :

— وعلى إيه ؛ أدى مخ الراجل بحاله . . .

مليا . فأتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض . وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسي من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجزر والتقطيع بل آثر به ولا أرتعد ! ثم أى خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الانسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغي أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتي . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت في نفس مساعدى أحداثا . وأردت أن أسأله في ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيرا !

وتناولت الإشارة . وماكدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟ . . .

فأسرع مساعدى متاهفاً .

— مالها ؟

— وجدوا جثتها في الرياح قبلى البلد ؟

— وماتت ؟

قلت لك وجدوا جثتها ، خذ أقرأ الإشارة ! فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بمبنيه حتى وصل إلى آخر عبارة وهى : « ويحتمل أن يكون سبب الوفاة اسفكسيا الفرق » وقفت عيناه عليها لحظة من التأثر ، وكنت أما أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشئ الجميل بهذه السرعة

وأطرقت قليلا أفكر في سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعاً عاقلاً ومجنوناً ، ومخلوقاً حلوا منحنى أويقات حلوة ولحظات مشرفة ، ونسباً عابلاً هب على

وأخرج بكنا يديه كل ما في الججمة من مخ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة وقسم هذا المخ أقساماً أربعة أعطى كلا من معاونيه قسماً وكافهم أن يبحثوا عن المذوف بحثاً جيداً فجعلوا « بالغوصون » بأصابعهم في هذه المسادة التى يمزى اليها كل نبوغ الانسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالمهلبية ؟

هذا هو مخ الانسان !

قلت ذلك همسا لنفسي : وقد بدأ الروح الذى أخذنى أول الأمر يزول عني شيئاً فشيئاً . وتصلبت أعصابى وحمد إحساسى وتيقظ في نفسى حب الاستطلاع ؛ ورغبة في أن يفتح أمامى كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فانز القاب ولز السكبد ولز الأحشاء . لم يعد هذا الرجل في نظرى رجلاً ، إنما هو ساعة حبط كبيرة ممددة أريد أن أفتحها لأشاهد آلائها وتروسها ومجالاتها وأجرامها

ولم يجد الرجال شيئاً كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ؛ ولكننا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القتل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن مساعد الجد والضيق وأعمل الشرط في ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! امشط ! ...

وأخذتني حمى غريبة وفقدت كل شعور إنسانى فجاءت أقول للطبيب : أرني رثتيه ، أرني أمعاءه ، أرني الطحال الخ الخ . ولم يتردد الطبيب ، وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القاب ثم الأمعاء وأملئ :

— وجدنا القاب سليماً ، والأمعاء بها طعام مهضوم ، ولم نثر مع كل ذلك على شئ . ففكرنا

حتى سمعنا صياحا في الطريق ، فقمنا إلى النافذة ،
فاذا بنا نرى الشيخ عصفور يجري في الطريق ،
عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبيبة
والفلان ، وجمع من الأهالي خلفه وهو يصيح
كالجنون :

ورمش عينها يا ناس
بفرش على المية
واحدة بياض شفتي
والثانية باطيه
والثالثة من بدعها
غرقها في المية ...

ونار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة
كالزئير ، وتارة في حركات حركات خطباء المساجد
وهو يمشي أحيانا ويرقص أحيانا ويجري في كل
جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فابتننا عند النافذة
سامتين مأخوذتين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعندما حيث
كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :
— مسكين !

وعدت الى الاشارة ، وأمسكت بالقلم من
جديد ، ولكن الشك والتناقض خالجانى ..
— سمعته لما قال : « غرقها في المية » ! من
الى غرقها ؟ !

فقال المساعد :

— دى « هلوسة » مجانين ! حانفت تحقيق
بناء على « خطرفة » رجل مخبول في الشارع ؟ !
أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !
فجاء قوله ترددى ، وضففت على القلم ضفط
العزم والاعتناع وخططت أمر الدفن وأنا أقول :
— صدقت ، أنا حتى نفسي انصدت عن

القضية وأصحابها ! !

(يتبع)
نوفير الحكيم

صحراء حياتنا العاطفية المجردة في هذا الربف القفر
واستيقظت من تفكيرى ، ورفعت رأسى
ومددت يدى إلى مساعدى أسترد الاشارة وأخط
عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ،
ونجأة تنبته إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول
مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحنا جثثا ، فليكن ،
وإلى لعل استعداد لتشريح نصف أهالى هذه
البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجلال فحرام أن
نمزقه لنرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الاشارة
بنظرة الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشريح

— ومين غير حضرتك ؟ !

— مستحيل ، أنا أولا كفاية على تشريح
الصباح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح
جثث ! أنا مساعد نياية مش مساعد حانوتى ! ثانيا
البنت دى بنوع خصوصى ...
فتأملت قوله ، وعذرته . وأطرقت لحظة
ثم قلت :

لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له
قلب يحضر ... أنا لو دفعوا لى عشرين جنينها ... !
هات الاشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن
ونخلص ... !

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن
نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف
عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن
الوفاة من اسفكسيا الفرق ، أى أنه لم يجد آثاراً
مشتبهاً فيها تدل على أن الوفاة جنائية ، فاجراء
التشريح فى هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال
الفقة والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون
أن يتصرفوا على كل وجه تصرفاً منطقياً مقبولا .
وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق

الذئبية

للكاتبة الانجليزية كاترين منسفيلد
يقدم الأستاذ عبد الحميد حمدي

جالس الشيخ ووديفيلد
على كرسية المريح يدخن
السجائر الذي قدمه إليه
صديقه ، وينظر نظرة ،
يكاد يبدو فيها أثر الشره ،
الى ذلك الصديق الذي
يدور فوق كرسي مكتبه
معتدل القامة أحمر الوجه ،
فهو وإن يكن أكبر من
صنيفه سنًا بخمس سنوات

إلا أنه لا يزال قوياً ولا يزال قابضاً على الدفة ،
وإن الانسان لينتمش بالنظر إليه . ثم قال الشيخ
بصوته الصفيرى فى شئ من اللباقة والاعجاب :

« نعم ، يشهد الحق أن هذا المكان هائلٌ
صريح ! . . . »

فقال المدير ، وهو يفتح صفحات جريدة
فينفشيال تيمس بمقطع الورق :

« نعم ، إنه صريح بالقدر الكافى »

وواقع أن الرجل كان نخوراً بغرفة مكتبه ،
وكان يحب أن يعجب بها الناس وبخاصة صديقه
المعجوز الشيخ ووديفيلد . ولقد كان من أشد
بواعث شغور الرضى العميق الثابت فى نفس
المدير أن يجلس معتدلاً وسط هذه الغرفة متعرضاً
تعرضاً تاماً لنظر صديقه الشيخ الضعيف القابع فى
ذلك الكرسي الكبير الذى يكاد يخفيه عن العيون
وقال المدير موضحاً كما وضح فى الأسابيع الماضية
التي لا يذكر عددها :

« لقد أعددت هذه الغرفة أخيراً أعداداً
جديداً ، فهذه سجادة جديدة » ، وأشار إلى
السجادة الحمراء الزاهية ذات الرسوم والدوائر
البيضاء الكبيرة ثم قال :

قال مستر ووديفيلد فى صوت يشبه الصفير :
« إنك هنا مستكمل جميع أسباب الراحة
والرفاهة . . . »

وكان مستر ووديفيلد جالساً على كرسي كبير
من النوع المريح من الجلد الأخضر ، إلى جوار
مكتب صديقه المدير ، وأطل مستر ووديفيلد ،
وهو يوجه هذه الكلمات إلى صديقه ، من كرسية
كما يطل الطفل من عربته ، وبهذه الجملة ختم
حديثه معه ، وقد آن موعد انصرافه ، ولكنه
لم يكن راغباً فى الانصراف ، فهو منذ أن استقال
من عمله ، أو بمباراة أخرى منذ أن أضرب عن
العمل ، اعتادت زوجته وبناته أن يجلسنه فى البيت
طوال أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء ، ففى يوم
الثلاثاء يسمح له بارتداء ملابسه واصلاح هندامه
والخروج إلى طرقات المدينة ، حيث يقضى النهار كله
أنى شاء ، ولكن لم يكن فى مقدور زوجته وبناته أن
يتخيلن ما يعمل فى أثناء غيبته عن البيت ، على أنهن
كن يفترضن أنه يزور بعض أصدقائه فيضايقهم
بأحاديثه . . . وقد يكون هذا الافتراض مطابقاً للواقع
والحق أننا لننشب بمسراتنا الأخيرة كما
تنشب الشجرة بأوراقها الأخيرة أيضاً ، وهكذا

« هذا هو الدواء ، ولقد قال لى الرجل الذى أخذته منه ، فى لهجة التوكيد ، إنه جاء به من مخازن قصر وندسور »

فلم يقع نظر الشيخ ووديفيلد على الزجاجاة حتى ففرقاه ؛ ولم يكن ليدهش أشد مما دهش لو أن صاحبه أخرج بدل الزجاجاة أرنبا .
وقال فى لهجته الصغيرية :
« أليس ذلك هو الوسكى ؟ »

فأدار صاحبه الزجاجاة وأراه رمز مصنمها فقد كانت بالفعل زجاجاة وسكى

وقال ووديفيلد وهو يحدق النظر فى صاحبه :
« أتعرف أنهم فى البيت لا يسمعون لى بتدوق الوسكى ؟ »

وبدا عليه كأنه يكاد يصيح من شدة الفرح .
وقال صاحبه رافعا صوته :

« آه ... هذا هو الموضوع الذى نعرف فيه أكثر قليلا من السيدات »

ومال نحو قدحين كانا على السائدة مع زجاجاة الماء فصب فى كل منهما كمية وافية من الوسكى وقال :
« اشرب هذا فسيفيدك جدآ ، ولا تترجبه بشيء من الماء ، فمن الخسارة إفساد مثل هذه المادة المقدسة . آه ! »

ثم جرع كأسه وتناول مندبله فسح شاربيه مسرعآ ، ونظر من طرف عينيه إلى ووديفيلد الذى كان يداعب قدحه بشفتيه

وشرب ووديفيلد القدح دفعة واحدة ، وبقي لحظة سامتا ، ثم قال فى صوت خافت :
« إنه شديد الرائحة »

ولكن الحمر دفأته وأعادت قوة التذكر إلى رأسه البارد المعجوز — فتذكر وقال وهو يرفع نفسه ليقف على قدميه :

« وأثاث جديد »
وأشار برأسه إلى المكتبة الكبيرة والسائدة ذات الأرجل الملتوية ذات اللون المسلى ، ثم قال :
« ومدافىء كهربائية »

ولوح بيده مبتهجا نحو الخمس الأمايب الشفافة المضئئة باللون الأحمر اللطيف داخل جهاز من النحاس ذى رفرف كالمظلة فوق هذه الأمايب

ولكن الرجل لم يوجه نظر ووديفيلد إلى الصورة الفوتوغرافية المعلقة فوق المكتب والتي تمثل فتى عابس الوجه ، واقفا فى لباسه المسكرى ، وسط واحدة من تلك الحدائق الخيالية التى يعمدها المصورون فى دورهم ، وراءه سحب متكاثفة هى كذلك من صنع الخيال . ولم تكن هذه الصورة جديدة فى مكانها هذا ، فهى معلقة فيه منذ أكثر من ست سنوات

وقال ووديفيلد المعجوز :
« كان عندى ما أردت أن أقوله لك »
وهنا ظلمت عينيه غشاوة الذكري ثم قال :
« والآن لا أكاد أذكر ما كنت أريد أن أقول فما هو يا ترى ؟ لقد كان فى رأسى عند ما غادرت بيتى صباح اليوم »

وبدأت يدها ترتجفان وبدأت يقع حمراء على لحيته فرماله صاحبه وأشفق عليه وقال فى نفسه :
إن هذا الصديق المسكين قد بذل أقصى جهده فى الحديث ، ثم غمز له بيمينه وقال مازحا :

« سأخبرك أما بهذا الأمر . فإن عندى هنا قطرة من شيء ينفعك قبل أن تخرج إلى صقيع الطريق مرة أخرى . وهو مادة لطيفة لن تضر طفلا صغيرآ »
وأخذ مفتاحا من حلقة مفاتيحه وفتح دولابا تحت مكتبه وأخرج منه زجاجاة مضلمة داكنة اللون وقال :

على قبور أعزائنا فقد وجب أن ندفع كل ما يطلب منا دفعه ، هذا هو تفكيرهم »

وأبجى الشيخ صوب الباب

وقال المدير في صوت مرتفع وإن لم تكن في رأسه أية فكرة عما هو هذا الحق :

« نعم هذا حق ! نعم هذا حق ! »

وخرج الرجل من وراء مكتبه وتبع صاحبه في خطواته البطيئة حتى أوصله إلى الباب . وخرج ووديفيلد فغاب عن الأنظار

ووقف صاحب المحل لحظة طويلة ينظر إلى غير شيء . بينما « ساعى » المكتب الأشيب الشعر يرقبه من مكانه في احتراس شديد ، يخرج رأسه بحذر ثم يعيده كالكتاب الذى يتوقع أن يأخذه صاحبه معه في مرحلة طويلة . ولم يلبث سيده أن قال له : « لا أريد أن أقابل أحداً لمدة نصف ساعة ..

هل فهمت ؟ لا أريد أن أقابل أحداً مطلقاً »

« ليكن ما تريد يا سيدي »

وأقفل الباب ، واجتازت الخطوات الثابتة الثقيلة السجادة الزاهية مرة أخرى ، وارتدى الجسم السمين فى الكرسي اللواحي ، ومال الرجل إلى الأمام نخبثاً وجهه بين كفيه . لقد أراد ولقد اعتزم بل لقد أعد عدته للمكاء . . .

لقد كانت الصدمة قاسية فظيمة عندما فاجأه الشيخ ووديفيلد بملاحظته على قبر ابنه . فلقد كان الأمر تماماً كما لو أن الأرض قد فتحت ورأى ابنه فى قبره وبنات ووديفيلد ينظرن إليه . لأن المسألة كلها كانت غريبة فانه وإن كان قد مضى ست سنوات على موت ابنه ، إلا أنه لم يتصوره إلا راقداً فى لباسه العسكري لم يصبه تغير ولا تشوه ، وإن هى إلا نومة الأبد الهادئة

وقال المدير منتحباً : « ابني ! »

« هاك ما أردت أن أقول ، فقد ظننت أنك تود أن تعرف أن البنات قد ذهبن إلى الباجيك فى الأسبوع الماضى ليلقين نظرة على قبر ريجيى المسكين ولقد تصادف أن رأيت كذلك قبر ابنك ويبدو لي أن القبرين متجاوران »

ووقف الشيخ ووديفيلد عن الكلام ولكن صاحبه لم يجبه ، غير أن رمشة جفنيه أنبأت بأنه قد سمع وقال الشيخ فى صوته الرفيع :

« وقد ابتهجت البنات بما رآين من العناية بالمكان ، ولو كانت هذه القبور فى الجحش لما كانت بأحسن حالا مما هى عليه هناك . وما أحسبك قد ذهبت إلى ذلك المكان ؟ »

فأجاب الرجل : « لا . لا . لا . »

وهو لأسباب عديدة مختلفة لم يسافر إلى الباجيك فقال ووديفيلد فى صوت مرتجف :

« إن مساحة المكان تبلغ عدة أميال وكلها

نظيفة منسقة كالحديقة ، والأزهار تنمو على جميع القبور . وهناك طريق واسمة جميلة »

وقد ظهر من نبرات صوت الشيخ مبلغ حبه للطريق الجميلة الواسعة ، وسكت الشيخ ووديفيلد مرة أخرى ثم ابتهج ابتهاجاً غريباً وقال فى صفيه المتاد :

« أتدرى كم تقاضى الفندق البنات ثمناً لملبة الربى ؟ لقد تقاضاهن عشرة فرنكات ! وإني لأسمي ذلك سرقة . ولقد كانت الملبة صغيرة كما تقول جرترود ، لا يزيد حجمها على حجم نصف الريال الانجليزى ، ولم تكن قد أخذت منها أكثر من مائة صغيرة عندما تقاضوها المشرة الفرنكات .

لذلك أخذت جرترود الملبة وجاءت بها معها لتلقى عليهم درساً . وهذا حق أيضاً ، فان هؤلاء القوم يتاجرون على حساب عواطفنا . فهم يظنون أننا مادمننا مضطرين لأن نذهب إلى هناك لتلقى نظرة

ولكن عينيه لم تذرفا الدمع بعد ، وقد كان في الماضي ، في الأشهر الأولى وحتى في السنوات الأولى بعد موت الفتى ، يكفي أن يذكر ابنه ليستولى عليه من الحزن ما لا يمكن أن يخفف من قسوته إلا نوبة حارة من البكاء المر ، وكان يقول إذ ذاك ، اسكن إنسان : إن الوقت لا يستطيع أن يبدل من حاله تلك ، وإن غيره من الرجال قد يشفون من أحزانهم ، وقد ينسون الخسارة التي أصابهم ويتمزجون عنها . أما هو فلن يكون ذلك شأنه أبداً ، وإن يبدل الزمن من حاله بأهناً منها ، وهل كان من الميسور أن يبدل حاله ؟ لقد كان ابنه ولدًا وحيداً ، ومنذ ولادته شرع أبوه يؤسس له هذا العمل الذي يقوم عليه ، ولم يكن لعمله هذا من معنى إن لم يكن مقصوداً منه أن يبقى للصبي الصغير يقوم عليه بعد أبيه ؛ بل إن حياة الرجل نفسها لم يبدلها من معنى آخر غير ذلك ، فهو إنما يحيا من أجل ولده الصغير ، وأى شيء على وجه الأرض كان يحمله على أن يستعبد نفسه ، ويشكر ذاته ، ويواصل العمل طوال هذه السنوات ، لولا الأمل المائل أمامه دائماً في أن يرى ابنه يدرج في تعليمه ، ويرتدى لباسه ، ويواصل العمل من حيث يتركه هو ؟ وكان هذا الأمل على وشك أن يتحقق ؛ فلقد قضى الفتى سنة قبل الحرب ، في مكتب أبيه ، يتدرب على الأعمال الأولية . فكان الأب وابنه يذهبان معاً كل صباح إلى المكتب ، وبعد انتهاء العمل يعودان كذلك معاً في قطار واحد ، وما أكثر ما تلقى الأب من التهنئات بصفته والداً لهذا الولد الناجح ، ولا عجب في ذلك ؛ فلقد كان الغلام مبدعاً حقاً في إتقان عمله ، ولم تعاق به في أية ناحية من نواحيه شائبة الغرور الذي يتلف خالق من كان في مثل مركزه ؛ بل لقد كان على

العكس من ذلك ، غلاماً سمحاً مشرقاً ، طبعي الخلق ، يخاطب كل إنسان برأيه الصريح فيه ، في عينيه نظرة الطفولة البريئة ، وقد تعود أن يجيب على ما يطالب منه بكلمات الطاعة المؤدبة . ولكن كل ذلك قد انتهى وتلاشى كأنه لم يكن من قبل ؛ فقد جاء اليوم الذي حمل فيه الخادم « ماسي » إلى سيده الرسالة البرقية التي هدمت المحل كله على رأسه ، وقد استهات تلك الرسالة بهذه الكلمات : « يؤلنا أشد الألم أن نبلاغك ... » وترك الرجل مكتبه ، مكسور القلب ، محطم الحياة . كان ذلك منذ ست سنوات مضت . . . نعم منذ ست سنوات . . . فما أمرع أن مر الزمن ؛ وكان ما حدث قد حدث في الأمس القريب . . . وأزاح الرجل كفيه عن وجهه وقد علت له الحيرة فقد خيل إليه أن في نفسه شيئاً غير سليم ، وقد أعوزه الشعور الذي أراد أن يشعر به . فاعتزم أن يقف وينظر إلى صورة ابنه الفوتوغرافية . ولكنها لم تكن إحدى الصور التي يحبها ، فنظرة الغلام فيها لم تكن طبيعية بل لقد كانت نظرة جامدة ، بل كانت نظرة عابسة متجهمة ، وهي نظرة لم يرها أحد قط من قبل على وجه الصبي في هذه اللحظة رأى الرجل أن ذبابة قد سقطت في الدواة الكبيرة وأنها تجاهد في ضعف ولكن جهاد المستبئس لتخايف نفسها من الشريك الذي وقعت فيه وكأنما كانت أرجاءها المتخبطة تنادى : المون ! المون ! ولكن جوانب الدواة كانت مبللة زلقة فسقطت الذبابة مرة أخرى في الحبر وشرعت تسبح فوق سطحه . فتناول المدير قلمه والنقط الذبابة فوضعها فوق ورق النشاف . فبقيت نصف ثانية جامدة لا تتحرك فوق البقعة السوداء التي ارتسمت حولها . ثم تحركت رجلها الأمامية وارتكزت على الأرض ، فجرت جسمها المبال جراً

فترة انتظار موحمة ولكن صه . . . فيها هما الساقان
الأماميتان تعودان الى الحركة ، وشعر الرجل بارتياح
مفاجئ ، فأنحنى على الذبابة وقال يخاطبها في رقة
ولطف : « أيتها المخلوقة الصغيرة المجتهدة . . . »
وحاول فملاً أن يساعد لها بأنفاسه في تخفيف نفسها
ولكن على الرغم من ذلك كانت حركاتها في هذه
المرّة ضعيفة بطيئة ، وقرر المدير وهو يفهم قلبه
في الخبر مرة أخرى أن تكون هذه آخر مرة
ولقد كانت بالفعل آخر مرة ، فقد سقطت
نقطة الخبر الأخيرة على ورق النشاف ، فرقدت
الذبابة القذرة تحتها جامدة لا تتحرك ، وقد انصهت
أرجاءها الخلفية بجسمها ، أما الساقان الأماميتان
فقد اختفتا عن النظر

فقال الرجل : « هلم ... استيقظي ! »
وحاول أن يشير بقلبه حركة الذبابة ، ولكن
عشياً — فلم تتحرك ولم يعد من اليسور أن تتحرك
لقد ماتت الذبابة
فرفع الرجل الجثة على طرف مقطع الورق ،
وألقى بها في سلة المهملات . ولكنه في هذه اللحظة
أحس بشعور ساحق من التعاسة يستولى عليه عنيفاً
حتى لقد تملكته خوف حقيقى ، فهم من مكانه
وضغط زر الجرس طالباً خادمه « ماسى »
فلما جاء الخادم قال له في لهجة حادة :

« جئنى بورق نشاف جديد واخصه جيداً »
وبينما الخادم يسير عائداً فى خطواته الثقيلة أخذ
المدير يسائل نفسه فى حيرة : فى أى شىء كان يفكر
من قبل ؟ ماذا كان الموضوع الذى شغل رأسه ؟
لقد كان يفكر ... وتناول منديل من جيبه فدهسه
بين عنقه وياقته . . . فلقد نسي نسياناً تاماً فى أى
شىء كان يفكر ...

عبد الحميد محمدى

حتى رفمته قليلاً ، وعندئذ بدأت المهمة الكبرى
مهمة إزالة الخبر عن جناحيها ، فكانت رجلها
ترتفعان وتهبطان محتكيتين بالجناحين احتكاك حجير
المسن بالنجل ، ثم وقفت هذه العمالية لحظة ، وبدأت
الذبابة واقفة على طرفى رجلها الأماميتين ، وقد
اجتهدت فى نشر أحد جناحيها ثم نشرت الجناح
الآخر ، وقد نجحت فى محاولتها ، وجلست أشبه
ماتكون بالقطيطة محاولة تنظيف وجهها . وابتصورت
الانسان منظر الرجلين الأماميتين تحتك إحداهما
بالأخرى فى خفة وابتهاج . فقد انتهى الخطر
الفظيع ، وقد نجت الذبابة من الموت واستعدت
مرة أخرى لمواجهة الحياة

ولكن فى هذه اللحظة بدت لصاحب المحل
فكرة طارئة ، ففهم قلبه مرة أخرى فى الخبر
ووضع قبضته الغليظة على ورق النشاف ، ولم تك
الذبابة تحرك جناحيها محاولة الطيران حتى غمرتها
نقطة خبر كبيرة ثقيلة . فماذا عساها أن تفعل فى
هذا الخطر الجديد ؟ نعم ماذا عساها أن تفعل !
لقد بدا على المخلوقة التعيسة أنها قد ذهلت وأصابها
الحيرة واستولى عليها الخوف من الحركة جزعاً مما
قد يدهما بعد ذلك . ولكنها لم تلبث أن جرت نفسها
الى الأمام وكأنما كانت تفعل ذلك فى شىء من البطء
وقال الرجل فى نفسه إن هذه الذبابة شيطان
صغير جرىء ، وشعر بأعجاب حقيقى بشجاعتها .
فهذه هى الطريق التى يجب أن تعالج بها المشكلات
هذا هو الروح القوى السليم . لا تقل أبداً
« أموت » فما هى إلا مسألة . . . ولم يكن لدى
المدير من الوقت ما يتسع لأكثر من إعادة غمس
قلبه فى الخبر وسكبه مرة أخرى على الذبابة التى
كانت قد نظفت جسمها مرة ثانية وقال فى نفسه :
« وماذا أنت فاعلة فى هذه المرة ؟ » وتبع ذلك

ناهد

لأستاذ إبراهيم المقادير المازني

به . . . شيء يطير
العقل . . . على كل حال
الذنب المهنة لا لي . .
والآن وقد اطمأن
قلبي فهل هذه الشقة
مسكنكم ؟

فسرها أنه يكلمها
كلام رجل لفتاة ، لا كلام

معلم للمهذبة ، وصار كل ما يقول يغريها بالضحك
وقالت وهي تغالب الضحك الذي لا داعي له :

« نعم . . . لنا فيها سنوات . . . وحضرتك ؟ »

فقال واعتدل في وقفته وزوى ما بين عينيه :

« حضرتي الساكن الجديد في هذه الشقة المجاورة
لحسن الحظ - لشقتكم . . . شامت المقادير أن نكون

جيراناً ، فإذا كان هذا لا يغريكم بالهرب أفلا ترين

أنه يحسن أن نسقط « حضرتك وحضرتي » من

حديثنا ، وأن نتكلم كما ينبغي أن يتكلم الجيران

بلا تكلف ولا مجاملات »

فقالت وهي فرحة مسرورة : « بالطبع . .

ولكن يا أستاذ كيف يمكن ؟ »

فقال : « آه رجعتنا . . . كلما ارتقنا الفتح من

ناحية انهار من ناحية أخرى . . . أستاذ . .

وحضرتك . . . يظهر أني اتخذت مسكني في

مدرسة داخلية . . »

فضحكت وارتج ثدياها الناهدان وقالت :

« ولكن كيف أقول حين أخطبك . . . لست

أحب التكلف ، غير أني مع ذلك لا أرى كيف

أقول . . . »

قال : « قولي ما تريدن بغير أستاذ وحضرتك .

على كل حال . . . ألا ترين من واجبك أن تعرفيني

« أوه . . . » - ووضعت يدها على صدرها

الناضج ، بينما كانت يدها الأخرى على الباب :

« هل خوفتك ؟ . . . إلى آسف . . . المرة

الآتية أضع على وجهي ستارا . . . هكذا . . . »

وغطى وجهه بكفه ، وجعل ينظر إليها من بين

أصابعه وهي تضحك

ووسمها أن تتكلم فقالت : « ألسنت حضرتك

الأستاذ السميع ؟ »

فقال وهو يتكاف الجذ : « كنت قبل اليوم

نفورا بأن أدعى الأستاذ وأن يكون اسمي السميع . .

هو اسم لا بأس به . . . ويجب أن أعترف بأن أبي

أحسن الاختيار وأولاني فوق ما أستحق حين

سماني السميع . . . ولكني سأظل بعد اليوم أذكر

فزعك حين رأيتني . . . أم ترى هو وجهي الذي

خفت منه ؟ »

فابتسمت « ناهد » وقالت : « لا يا أستاذ . .

معذرة . . . كل ما في الأمر أنك كنت أستاذي

في المدرسة . . . »

ففرك الأستاذ كفيه وقال : « آه هذا أحسن . .

الآن فهمت لماذا أفزعتك رؤيتي . . . معقول . .

المعلمون شيء مخيف . . . دأبهم أن يأمرُوا وينهوا . .

يأمرُون بالشئ كانوا ينهون عنه أو ينهون عما أمرُوا

بهذه الفتاة الجميلة التي كانت تلميذتي ؟ »

فقالت بايجاز وقد انقصد وجهها حتى صار كالجرة « ناهد »

فقرك ذقنه بيده وقال كأنما يحدث نفسه وعينه إلى الأرض : « ناهد . . ناهد . . اسم حلو . . ليتك كان اسمي » (ضحك منها) ، ولكنه لا يحرك في هذا الثربال الذي جملة الله لي بدبلا من الذاكرة أى اختلاج . . آسف جدا . . لا حق لي أبدا . . ولكنى أعدك ألا أنساه بعد اليوم . . وكيف يمكن أن ينسى اسمك الحلو من يراك ؟ » فأخجاها هذا الشناء الزوج عليها وعلى اسمها ، وحمدت له في سرها أن قصر المدح الصريح على اسمها

ولم يصدق الأستاذ السميع حين قل لها : إنه لا يذكرها ولا يذكر اسمها فقد كان معلما ثلاث سنوات كاملة ولم تغب عنه إلا عاماً واحداً . وكانت أحب تلميذاته إليه وأجرأهن عليه ، وكان يسره منها أنها لم تكن تحجم عن مناقشته إذا بدا لها رأى فيما يقول ، وكان هو يؤثر أن يشجع تلميذاته على السؤال والبحث والنوص وعدم الاكتفاء بما يسمعن منه كأنما كان أستاذاً في جامعة لا في مدرسة ثانوية ، وأعداهن بالجرة واليفرن معه الحرية في البحث فكان يحففن به في حينما يجنده — في فناء المدرسة أو على السلم أو في الفصل — ويمطره أسئلة في كل موضوع ولو كان لا صلة له بالتاريخ الذي يدرسه هن . وكان هذا لا يسوءه أو يقل عليه ، فقد أتم تعليمه في إنجلترا فلما عاد ثقلت عليه وطأة الفصل بين الجنسين ، فلما نقل إلى هذه المدرسة كان يأنس بمحدث الفتيات ويرى في ذلك

بعض الموض عما يفوته خارج المدرسة . وكن هن يفرحن به لفرط ما يمانين من العزلة في هذه المدرسة « الداخلية » والاستيحاش والحرمان ، فما كن يرين من الرجال سوى بعض الخدم واثنين أو ثلاثة من الشيوخ المتحجرين ، وهذا الشاب الظريف الساخر الذي يصدمهن ويروعهن بآرائه الجديدة في الحياة وفي كل شيء ، والذي لا يفرض مع ذلك عليهن رأياً ، بل يدعوهن إلى التفكير الحر المستقل في كل أمر وكل حالة من حالات النفس والاجتماع ، ويهش لهن ويمزح معهن ويضحكنهن من أنفسهن ، ويسخر من كل مانشأن عليه من العادات والتقاليد ، ويشعرهن أنهم إخوة له لا تلميذات ينهرن ويذرن وبما تبن كالأبنة الأساتذة الآخرون يفعلون ، بل كما يفعل المعلمات أيضاً ، بل الناظرة الانجليزية التي تكاد تمدهن من طبقة دون طبقة الانسان . وكانت « ناهد » فتاة كاسمها ناهداً ، ورثت عن أمها رقة الحس ودقة الشعور وعن أبيها — وكان لواء في الجيش — الصراحة والجرأة وحسن التقدير للواجب والادراك لمزية النظام . وكانت لها زميلة في المدرسة تحبها حباً يقرب من العبادة وكانت هذه الزميلة — سعاد — ضامرة ضاوية ولكنها غنية صرفة تجمي معها من البيت كلما عادت منه بألوان شتى من « المهربات » — حتى السجاير كانت تدسها في خزانها ، فإذا أمنت عين الرقيقة أشمات واحدة واضطجعت على الوسادة وراحت تدخن والبنات ينظرن إليها مبتسمات حاسدات ، واسكنهن كن يحبينها فكان لا يقان شيئاً ، ويحرصن على ستر هذه المخالفة عليها . وكانت كريمة سخية بكل ما معها إلا السجاير فكانت لا تجود

يتجاهل هذا ويفضي عنه ويكلمها كما يمكن أن يكلم
 أبة فتاة ، خفق قلبها ورضيت عن نفسها وعنه
 وانصت الأسباب بين الأستاذ وبين الأستاذة ، وتبوءات
 الزيارات وكثير لقاء الأستاذ السميع بناهد . وكانا
 كثيراً ما يقفان في شرفتهما المتجاورتين يتحدثان
 واستطاع بأبلاقة أن يزيل السكينة . وتدبقت تدعوه
 الأستاذ ولكن اللفظ نقد ما كان له من الدلالة
 القديمة . وكان هو يعتمد أن يجمل من نفسه عادة
 لها وأن يشعرها أنه رجل وأنها هي فتاة ، وكان إذا
 ألقيا يحس أنها تهم بأن تمد يدها إليه لتحيته كما هي
 العادة فيتعهد أن يهمل ذلك ليذيقها الحرمان وإن
 كان طفيفاً وفي أمر لا قيمة له . وأحياناً يريح كفه
 الكبيرة على كتفها ويحدق في عينيها كأنما يفوض
 على سرها ، فتطرف وتفضي حياءً وبضطرم محياها
 النضير الصبيح فيربت لها على ظهرها ويلبس ذقنها
 بأطراف أصابعه ، ويرفع وجهها حتى تلتقي العيون
 مرة أخرى ، فتتبسّم وتنازع نفسه في أمثال هذه
 اللحظات أن يلثم فمها ، فيرد نفسه بجهد ويمضي عنها
 إلى النافذة وهو مطرق فتتبعه بعينها ولا يسمها إلا
 أن تفكر في هيئته وحالته ودلالة ما ترى منه
 وقال لها مرة - وكان في شقتها - بعد أن
 شرب القهوة : « اسمي » وسبقها إلى النافذة :
 « ما قولك ؟ بعد غد عيد الجلوس . »
 قالت : « آه »
 قال : « هذه فرصة يمكن أن اتغتنمها للخروج
 مرة إلى الرياض »
 قالت : « لست فاهمة »
 قال : « لقد كنت منذ بضعة أيام في القناطر
 الحيرية .. »
 فسألته : « وحدك ؟ »

على بنت بأكثر من « نفس » ولكنها كانت تلح
 على ناهد أن تدخن وتمرض عليها السجائر كلها
 فتهمز ناهد رأسها وتشيح عنها بوجهها نافرة - من
 التدخين ومن المخالفة - وكانت سعاد ربحاً جمع
 بها حبها لناهد فتطوقها بذراعيها وتضمها وتقبلها
 وتدعوها أن تفعل مثل ذلك فيضيق صدر ناهد
 بهذا الحب ، وتتفقت من عناقها متأففة متبرمة
 وتصيح بها : بس . فتكف سعاد وتروح تستعطفها
 وتسترضيها وتحاول أن تتألفها من نفرتها وترقد إلى
 جانبها على سريرها كالأقطة أو السكب وترجو منها
 أن تدعها ترقد على سريرها لتتعم بقربها فتهمرها
 ناهد - وإن لم تكن بها قسوة - ولا تزال بها
 حتى تقصصها عن سريرها فتقوم المسكينة آسفة
 محزونة مطأطأة الرأس ، فيرق لها قلب ناهد وتردها
 إليها وتقبلها وتقول لها : « الآن اذهبي إلى سريرك
 راضية » فيشرق وجه سعاد ويلتصع فيه نور البشر
 وتجري إلى سريرها قريرة العين

وكانت ناهد تحس حين تلتقي الأستاذ السميع
 وتتاح لها فرصة الحديث معه أن هذا خير عوض
 عما تعاني من حب سعاد لها - هذا على الأقل رجل
 ولم تكن تدرك شيئاً من المعاني الجنسية بوضوح
 ولكنها لم تكن تحتاج إلى أكثر من فطنة الغريزة
 ولم تكن خبرتها بالحياة والناس قد زادت بعد
 تركها المدرسة اكتفاء بما حصلت من التعليم
 الثانوي فقد بقيت حياتها في البيت - كما كانت في
 المدرسة - أشبه بحياة الراهبات في الدير سوى
 أن وطأة الرهينة في البيت أخف ، فلما التقت بمعلمها
 السابق فرحت بذلك وسرها على الخصوص أنه
 تلاميذ وهو يكلمها أنها كانت تلميذته ، وكانت هي
 قد نسيت ذلك أيضاً ثم عادت تذكره حين رآته

يبتها أمام السراى .. »
 فقال : « هل تريد أن يضحك منى الخلق ؟
 تركبين منى إلى عابدين ؟ .. لا لا لا »
 قالت : « لن أدخل السراى .. تضمنى أمام
 البيت وتذهب أنت إلى التشريفات .. لم لا ؟ »
 فقال : « لا يا سقى .. اذهبي أنت وحدك ..
 أو انتظري حتى أعود ثم اذهبي بالسيارة »
 قالت : « يا بابا أنت مدهش .. أنتظر حتى
 تنتهى التشريفات ثم أذهب ؟ وماذا أرى إذن ؟
 طيب اذهب انت وحدك .. أقول لك .. خذنى
 معك إلى العتبة الخضراء .. »
 فرضى وحملها معه فى السيارة إلى العتبة الخضراء
 ولو ألحت لحملها إلى ميدان عابدين ؛ بل لدخل بها
 القصر ؛ فقد كان حبه لها — وهى وحيدته —
 عظيما ودلالها عليه كبيرا ، ولما استطاع أن يرضى
 عن نفسه إذا هو رفض لها رغبة أو أبى عليها شيئا
 ولم يفسدها هذا التبدل الشديد ؛ بل زادها حبا
 له وإكباراً
 ولقيت السميع عند قاعدة النثال ، وكانت
 معه حقيبة فحملها ومضى إلى جانبها صوب المحطة ،
 وجلسا فى القطار وكرا إلى ذكريات المدرسة
 فمرض ذكر إحدى البنات البارزات ، وكانت
 باهرة الجمال . فقالت ناهد : « إنها فطيمة ...
 يقال إنها تشرب الخمر ... » ، وخجلت من نفسها
 لأنها قالت هذا واغتابت زمياتها ، ولكن
 الاغتياب لذيذ
 فقال الأستاذ السميع : « تشرب خمرآ ...
 وما ضرر القليل من الخمر يفتانى التقية الورة ... ؟
 ليت منى شيئا منها أشربه على الطعام »
 فقالت بسداجة : « ولكنها تناف أنسجة

نخطر له أن يدعها نظن ما شاءت لأن هذا
 أخلق بأن يزيدنا تعلقاً به وقال : « والحق إنها
 جنة .. فتمالى نذهب إليها يوم عيد الجلوس وننفدى
 هناك .. أسبق أنا إلى المحطة وانتظرك عند تمثال
 نهضة مصر وتلحقين بى هناك .. سأعد أنا كل
 ما نحتاج إليه »
 فقالت : « ولكن كيف أستطيع ؟ ماذا
 أقول لهم ؟ »
 قال : « إذن سأنتظرك هناك .. الساعة
 التاسعة تماماً .. »
 فظهرت التردد وبدأت عليها الحيرة فأراد أن
 يستثير احترامها لنفسها فقال : « لا داعى من الخوف
 على نفسك من وجودك منى فى هذه الحديقة العامة »
 فأغضبها أنه يتوهم أنها تخاف وتارت نفسها على
 هذا الظن ، وفمات ما كان ينتظر فقالت : « طيب »
 وانصرف مسروراً راضياً عن نفسه ، وارتدت هى
 عن الباب بعد أن شيعته إليه ساخطة عليه تقول
 لنفسها (يظن أنى أخاف منه .. بففففف ..) وخطر
 لها على الرغم من سخطها وغضبها أن عينه براقة وأن
 الشعر الكثيف الذى على ظهر كفيه جميل
 وقالت لأبيها صباح اليوم الموعود : « أنت
 ذاهب إلى التشريفات .. خذنى معك »
 فقطب وقال باهجة المستغرب : « آخذك منى ؟
 إلى التشريفات ؟ .. »
 فأضحكها هذا جداً ، وقالت وهى تسكاد تقع
 عليه : « أنت ظريف يا بابا .. موت .. »
 فقال : « ولكن ماذا تمنين ؟ .. آخذك
 منى ؟ .. »
 قالت : « إلى بيت زميلة لى من أيام المدرسة
 أتفرج من عندها على .. على .. على التشريفات ..

وسمعتها تقول وهي تبسم : « لا أتذكر أنى رأيت
مثالها من قبل ... رأيت زجاجات الويسكى فان أبى
كاف به ... أكثر الضباط يشربون الويسكى ...
ولكن النبيذ ... لا ... لم أره من قبل ... شكل
الزجاجة جميل ... »

فسألها : « هل تريد أن تقولى إنك لم تذوقيه
من قبل ؟ »

قالت : « أبدا ... شربت مرة قطرة ... قطرة
ليس إلا ... من البيرة ... وكم كرهت طعمها ...
أما النبيذ ... لا أبداً »

فسألها وهو ينظر إليها — يحدق فى عينيها —
ويبتسم : « وما قولك فى أن تذوقى هذا وتكرهى طعمه
بعد ذلك ؟ »

قالت : « سأخذ قليلاً إذا سمحت ... بالطبع
هذا عيب ... ولكن وجودى معك هنا أيضاً ...
كشرب النبيذ ... »

فسره حسن التعبير وابتسم لها ولم يقل شيئاً
وكانت صادقة ، فماذاقت من الخمر إلا قطرة كما
قالت من البيرة ، وإلا قليلاً من السكونياك تحتاج
إليه الغنيات أحياناً ليهون مايعانين من أوقات معلومة
وأكلت من السندويتش ثم بدأت تذوق
النبيذ ومطت شفتيها فوجدت طعمه كطعم
الخل ، وخاب أملها فيه كما خاب فى البيرة من قبل
وعجبت للرجال ماذا يجدون فى هذا الشراب وأمثاله
من اللذة

وقال لها : « هل لك فى كأس أخرى ؟ »
فهزت رأسها وقالت : « لا مرسى ... يظهر
أن المادة هى التى تجعل مذاقه سائماً »
فلم ياج عليها بل قال : « لا بأس .. هذا يترك
بقية الزجاجة كلها لى وحدى ... مرسى »

الدماغ ... هذا ثابت علمياً ... كل كتاب فى
الفسولوجيا يقول ذلك »

فقال : « أهنتك بما قرأت من كتب
الفسولوجيا ... طبعاً قرأتها كلها ... بالعربية
والإنجليزية والتركية واليابانية أيضاً »
فقالت : « أوه ، إنك تعرف ماذا أعنى ،
فلا تهكم »

فقال : « بالطبع ... ولكن هل تعرفين أنت
ماذا تعنين ؟ ... الحقيقة أن قليلاً من الخمر قد يفيد
فتاة مثلك ... يخرجك من هذا الجد الصارم فى
أمر لا قيمة لها ولا وزن ... يجعلك أقرب إلى
النوع الانسانى ... ألا تشتهين أن تحبى ؟ ... مرة
واحدة ؟ ... لحظة واحدة ولو قصيرة ؟ ... حياة
حافلة ؟ ... »

فسمعت أن إلحاحه هذا عليها بهذا الكلام
يزعجها ... وأحست كما كانت خليقة أن تحس
لو أنه وضع أصبعه على ضلع من ضلوع صدرها
وغرزها ... وقلقت ...

وبلغا الرياض الفسيحة عند القناطر ، فاختار
مكاناً ظليلاً تحت شجرة لغاء وقعدا على دكة هناك
متقابلين وأخرج ما فى الحقيقة استعداداً للأكل
وقال لها : « رتبى هذا ... هذا عملك ... ويجب
أن تصنى شيئاً لتستحق الطعام ... اكسبى رزقك
مرة بعرق الجبين ... »

ووضع زجاجة على الدكة ، فنظرت إليها وتناولتها
وقرأت ما عليها وقالت : « هذا نبيذ ... »
قال : « نعم نبيذ ... ومن خير الأنبيذة ...
نبيذ الرين ... يجب أن يوضع فى الثلج ... سادعو
خادم البوفيه ليحيطنا بوعاء وثلاج »
وذهب ثم عاد فألفاها لا تزال تتأمل الزجاجة

وصارت على صدره ، وخيل إليها أنها تستطيع أن تبقى كذلك الى الأبد . وكرّ بها الى الدكة وأخرج السجائر وقدم اليها واحدة فحاولت أن تذخن للمرة التاسعة أو العاشرة في حياتها . والمرة التاسعة أو العاشرة أخفقت ولم ترض عن الطعم الذي وجدته ولكنها مع ذلك كانت مسرورة — النبيذ الماسخ وهذه الدكة الخشبية الناشفة والأرض الخضراء المتوجة والأشجار الباسقة الهرمة والشمس التي تملأ الدنيا بشراً ودفناً وأخيراً هذا الرجل

ولم تفزع بل أحست بالرضى والافتباط حين دفع ذراعه ، فأحاط بها خصرها وأمال خدها الصالح على كتفه ، وسرها أن تلمس بخدها ثوبه الحسن اللاني ، ولكنها استادت لما رفع عيناها إليه ايقبلها ، وحدثت نفسها أن الرجال جميعاً هكذا ، وإن كانت هذه أولى تجاربها ، ورأى هو انقباضها . فقال لها وهو يضحك : « هل تمرنين حكاية الرجل الذي سأل الطبيب هل يمكن أن يعيش — كأبيه — مائة سنة ؟ فسأله الطبيب : هل هو يدخن ، أو يشرب الخمر ، أو يحب النساء أو يحب الليل بالسهر ، أو يهوى شيئاً من الأشياء التي يكلف الناس بها . فقال الرجل : إنه لا يفعل شيئاً من ذلك ، وأنه لا هوى له في شيء ، فعجب الطبيب وسأله : إذن لماذا تبغى أن تعيش مائة سنة . ماذا تصنع بها ؟ »

وأدهشها أنه طوعها فجأة وأهوى على فمها بالقبل في غير رفق حتى لأحست أنها توشك أن تخنق ، واستغربت من نفسها أن امتعاضها حين همّ بتقبيلها أول مرة زال ، وأنها لا تسخط على الرجال ؛ بل أذهلها أنها شعرت أن شفيتها دبّت فيهما الحياة وقالت بضمف : « أرجو ... »

فحمدت له أنه لم يبلع وشعرت بالاطمئنان ، فقد كان الخوف يساورها على الرغم من تشجيعها وسرعان ما أحست أن معدتها حيت بفعل النبيذ ، فمدت يدها وأترعت لنفسها كأساً أخرى ولحمها الأستاذ فتعمد الاغضاء وشعرت بالدفء والخفة والسرور وحات المناظر في عينيها وأحست أنها تريد أن تجري هنا وهناك — وهل هي إلا طفلة ؟ — وأدرك السميز ذلك فنظر اليها وقال : « لم لا ؟ قومي اجري ... سابقيني ... أو أقول لك ... هذه كرة جئت بها معي ... تعالى نلعب بها ... »

وكانت قد نهضت فأنحنت عليه وهو يخرج الكرة من الحقيبة وقالت مستغربة : « كرة ؟ .. كيف خطر لك أن تجيء بها ؟ »

فقال : « من أجلك ... يا صغيرتي ... »

وأخرج شيئاً آخر ملفوفاً في ورق وقال وهو يلوح لها به : « وجئت أيضاً بشيكولاتة ... لفتاتنا الصغيرة فان الصغيرات يحببن الحلوى »

فقال : « أنسخر مني ؟ »

قال : « أولست صغيرة ؟ »

قالت : « صغيرة بالطبع ... ولكن ليس الى

هذا الحد ... لست طفلة »

فقال : « حسن ... نرد الشوكولاتة الى مكانها

وندخرها ابنت صغيرة ... »

فصاحت به : « لا لا لا » وضحكت وخطفت

الشوكولاتة

ولعبا بالكرة قليلا وسرها أن رجلاً طويلاً عريضاً مثله يلاعبها وكادت تقع مرة وهي تحاول أن تلعف الكرة ، فأدركها — أحاطها بذراعه فتعلقت به انقاء للسقوط على الحشائش البليلة

فصاح بها : « ألا تريدن أن نكونى امرأة حقيقية ، لا مجرد فونوغراف يعيد ما حفظ في المدرسة ؟ ... ألا تشتهين أن نحسى وتشعرى بجسمك يحترق وتضطرم فيه النار ... تندلع من أخمص القدم إلى الرأس ؟ ... هه ؟ »

فقات : « لا أدري ... أظن ... ولكن ... »
فصاح بها مرة أخرى : « تظنين ماذا ؟ ... خائفة ؟ ... هه ؟ »

وجذبها إليه مرة أخرى وقبلها بعنف ، فزاع بصرها ، وخفق قلبها ، وسرت في بدنها رعدة خفيفة — من السرور لا من الفزع أو الجزع — وخيل إليها أنها كرمال الشاطئ الجافة التي ارتفع المد إليها بالماء فرواها ، ولكنه أسرف في التقبيل وعنف في الضم ، فأحست بالبرد والفراغ في بدنها ووسمها أن تصبح به كما كان يصبح : « بس ... قلت لك بس ... » ، ولم تكن قد قالت له « بس » ولكن هكذا زعمت ... فخلاها ، ولكنه ظل ينظر إليها نظرة الصبي الذي يعمر صدره اليقين بأنه ذاهب إلى الملعب ليرى الدبة الراقصة وقال : « إنك فاترة ... ليس فيك حرارة »

فساءها ذلك وقالت : « فاترة ؟ ... لقد صرنا نتكلم بصراحة ... لا لست فاترة .. وأقول لك إنى استطببت القبلة الأولى ، ولكنك أردت بعد ذلك أن ... باختصار ... زدتها ... فهل يرضيك هذا الاعتراف ؟ ... فاترة ؟ ... »

فقال وهو يتأملها : « نعم فاترة ... ليس الذى فى عروقك دم حار ، وإنما هو حبر أحمر ... كلا ، لا حرارة على الإطلاق فى هؤلاء الفتيات المتعاملات ... لقد أصبحت أؤمن بالمرأة الأمية ... إنها على الأقل لا تتكاف ولا تتفلسف ، ولا تعرف

إلا ما تحس ... طبيعية ... »
فأغضبتها هذه الجملة منه عليها بلامسوخ تعرفه ، وأسخطها أنه يستفزها ، واستصغرت منه ما يحاول من تحقيرها ، ونفرت من لهجة الشموخ والتعالى فقالت له بجرأة أدهشتها هي قبل أن تدهشه : « ألا يمكن أن يخطر لك أن فى نفسى حرارة كافية وليكنك أنت لست ذلك البطل المغرى الساحر الفائن الذى تتوهم ؟ . يمكننى أن أقول لك إنى وأنا صغيرة أحببت ابن البقال الذى كان تحت بيتنا ... كان صبياً مثلى ولكنه كان فيه رجولة ... لم يكن عابثاً يرسل يده كالأفعى ليأمس الثدى .. لم يكن يحاول إغراء البنات الساذجات بقلب دروس التاريخ قصصاً غرامية وتصور الدنيا كلها كأنها ليس فيها إلا رجال يتزنون ونساء تتركن الشهوة الجاححة كالورقة المبلولة . لقد عميت لحظة عن حقيقتك ولكنى الآن أراك .. كما أنت .. فاترة ؟ مالك أنت ؟ . من فضلك اسمح لى أن أعود .. »

ونفضت ووقفت معتدلة القامة كأنها أبوها الجندى وخيل إلى الأستاذ السميع لحظة وهو ينظر إليها مبهوراً أنه لن يستغرب إذا طرأ لها شارب .. وعجب لأنوثتها أين ذهبت ، ولذلك اللين الساحر فى عودها ماذا صنع الله به .. منذ دقائق كانت إلى جانبه ، وكان يحسها كالزبد الطرية والآن .. تقف كالرمح ... بنت أبيها ... عجيب ...

وقال وهو يمد إليها يده : « إنى آسف ... وممئذ ... وأصدقك فأقول إنى كنت أتوقع ولا أستغرب أن أسمع منك شيئاً أو زجراً أو نحو ذلك ولكن هذا الكلام ... أعترف أنه آخر ما كان يمكن أن يخطر لى أن أسمعته حتى من رجل فكيف بفتاة غريبة مثلك »

وحدها بل منها ومن التجربة ... وأى تجربة لهذه
التي لعل أول من قبلها كما قبلتها . . ولكن من
يدري . . . كيف أكون واثقاً بمسد الذي سمعته
منها ؟ المرأة اغز محير . . أهو ذكاء فطري . . . !

وافترقا في المحطة بلا مصافحة ، وعاد كل منهما
إلى البيت من طرقت ، وحلت النبوة ووقعت
الجفوة ، وفتر الحال بين الأسرتين ، وانقطعت
الزيارات ، وامتنع التلاقى ، وصارت هي لا تخرج
إلى الشرفة حتى تستوثق أن شرفته خالية ، وصار
هو يرتد أو يحول وجهه إلى ناحية أخرى إذا برزت
في الشرفة أو أطلت من نافذة . . وكان كلاهما مع
ذلك مشغولاً بصاحبه . . هو يندم على ما كان
ويحدث نفسه أنه فقد كنزاً ، وإن كان كنزاً
رهيباً . . كنزاً فيه أو هو في بركان . . وهي تحلم
وعينها مفتوحة بالقبلة الحلوة ، والضمّة القوية ،
والشعر الكفيف على ظاهر اليد ، وتتساءل عما وراء
ذلك من أسرار المتعة الخفية . . .

وجاء يوم أحست فيه أن أمها تقبها بعينها
وتجملها أبداً عليها ، وخيل اليها أن أباه يرميها
أحياناً بنظرة فاحصة ، وزاد قلقها أنهما لم يقولا
لها شيئاً ولم يستغربا هذا الفتور الحاصل بين أمرتهما
وأمره السмир بمسد الاختلاط الوثيق ، وأنهما
لم يسألاها مرة عن شيء . وثقل هذا الشغور على
نفسها وحيرها الأمر ، ولم تدر ماذا تصنع ، ونازعها
نفسها أن تصارح أباه بالأمر كله ، فقد كانت على
خلاف المألوف المهود تسكن إلى أبيها وتبثه ما في
نفسها واثقة من عطفه وفهمه ، ولا تفعل ذلك مع
أمها ، ولكنها ترددت وطال التردد ، وخطر لها
مرة أخرى أن تكلم الأستاذ السмир نفسه في
الموضوع . ولكن ماذا تقول له ؟ . أتستجديه . .

فقلت ببساطة : « إنى فتاة غريبة ... هذا
صحيح ... لا تجربة لي ... لم أعرف الرجال ...
ولكنني لست ... لست حمارة ... وثق أن كل
الفتيات مثلي ... تنقصهن التجربة والسكنن لا
ينقصهن الإدراك الصحيح ... يستحيين أن يقلن
ما يعرفن ... هذا كل ما هنالك ... ولكنني أنا
تمودت ألا أستحي ... لماذا أخجل ... ؟ » وهزت
كتفها ومشت أمامه

وعاد في صمت وكانت هي تحدث نفسها وهي
جالسة في القطار تحقر ما بدا من صفاره لها ، غير
أن صوراً معينة أبت ألا أن تخايلها — منظر
كفه الكبيرة التي يكسو ظهرها الشعر . . ورأسها
السائل على كتفه الخشن . . وشفتاه على شفقتها . .
وحلاوة القبلات الأولى المباغتة ... حلاوة لا عهد
بها ولا كان في ظنها أن مثلها استفاد من الشفاء . .
وودت لو تعرف من أين تجيء هذه الحلاوة . . .
ولماذا تسرى الرعدة في البدن . . أترى الشفة باب
شيء ؟ باب إلى ماذا ؟ هذا المجهول ماذا هو يا ترى ؟
وكان هو يتحدث نفسه أنها نسخة طبق الأصل
من أبيها ، وأنها جديرة أن تلبس بذلة صفراء . . .
كأكي . . . وتبدو في شبكة عسكرية . . . والكلام
الذي قالته من علمها إياه . . لم يكن يعرف أن فتاة
غريبة مثلها — هي غريبة على التحقيق — يمكن
أن يكون هذا إدراكها وتلك لهجتها . . لو كانت
في الستين من عمرها لكان كلامها غير مستغرب . .
أما منها . . عجيب . . أتراها تقرأ كتباً . . ولكن
أى كتب . . . اتقرأ كل ما في الدنيا من كتب
فإنما المبرة بغير ذلك ... المبرة بماذا ... لا أدري
كيف أقول ، ولكنني أظن أن الكتب وحدها
لا تنكفي . . الإدراك الصحيح يجيء لامن الكتب

أنت طلب منه النجدة ؟ ..

وضاق صدرها بما أجبن ، وقابها بما وجد ،
وكان صدرها يجن الأستاذ السميع خابطاً هجيباً من
الهوى والنفور والشوق والامتعاض ؛ وخيل اليها
أيضاً أن قلبها يجن له الاحتقار ، ولكنها لم تستطع
أن تقنع نفسها بهذا . واتفق يوماً - أو ليلة على
الأصح - أن تدخلت على أبيها ، وكان وحده ،
فقالت : « هل أضايقتك إذا بقيت ؟ » فأفسح لها
إلى جانبه ولم يقل شيئاً ، وقعدت وطال الصمت ،
وتوهت أن أباه ينظر اليها خلسة ، وكبر في ظنها
أن على لسانه كلاماً يرد نفسه عنه بجهد ، فلم تعد
تطبق وصاحت به فجأة ووضعت يدها على صدره
العريض : « أبى . . . » وانطلقت تحذنه وتروى
له ما كان ، وهو مطرق يسمع ولا يقاطع ولا يقول
شيئاً حتى انتهت ، فرفع اليها وجهه الشاحب
وابتسم ، فانفجرت باكياً ، فربت لها على ظهرها
وقال بإيجاز . « لم يحب ظنى بك » نجفت دموعها
بسرعة وحدثت في وجهه وسألته :

« هل ... هل ... كنت تعرف شيئاً » فقال :
« كلا ... لم أكن أعرف شيئاً ... كنت أشعر
أن هناك شيئاً ... وأتوقع أن تقصيه على ... وخطر
لى أن أذهب إلى الأستاذ السميع وأسأله ...
لا لا لا لا ... لا تنزعجى ... لم أفعل شيئاً من
هذا ... ارتد إلى عقلي ... لم تكن بي حاجة إلى
الكلام معه ولا إلى سؤاله لأنه هو جاءنى أمس
وسألنى هل أَرْضَى أن أزوجه منك ... واعترف
أن هذا السؤال زاد قلقى ... خفت أن يكون قد
حدث أمر خطير ... فقد كان يكلمنى وكأنه يشيع
ميتاً ... اعتقدت أن هذا الطالب تكفير عن إساءة
خفت أن يكون هذا هكذا ... لم أقل له شيئاً ...
بل قلت له : إن هذا سؤال جوابه عند ناهد ...

فقال : إذن لا أمل لى ... فاستغربت واطمأن قلبى ..
سأخبرنى يا ناهد إذا كنت قد قلقت عليك ... لم
أسى بك الظن ... ولكنك صغيرة والرجال
شياطين ... وقلت له هل يتصور أن من الممكن أن
يتزوج فتاة متعلمة فى هذا العصر على رغم أنفها ...
أو هل يريد منى أن أكون جلاداً ... نهايته هذا
ما كان ... فما قولك ؟ »

فأطرقت ثم رفعت رأسها وقالت : « لأدرى .
وهزت رأسها : « يخيل إلى أحياناً أنى أحبه ...
وأحياناً أخرى أنى أحتقره ... لست أحتقره
ولسكنى لا أطيق سخريته وتعاليه ... بارد ... »
فابتسم ابتسامة المعارف الفاهم المدرك وقال :
« هذا التردد معناه أنك راضية ... لا تقاطبى ...
انتظرى ... أنت مشغولة به ... وهل الحب إلا هذا
الشفلات ؟ ... أنا أعرف ... أبوك يعرف ...
يا ناهد صدقنى ... »

فتركت الموضوع وأغراها الفضول بسؤاله :

« هل أحببت فى حياتك يا بابا ؟ »
فقال : « طبعاً أحببت » ثم أسرع فقال : « أمك »
فربت له على خده الخشن وإن كان حليماً
وقالت بلهجة من يدل طفلاً ، وأحست وهى تفعل
ذلك أنها تستطيع أن تكون أمّاً لهذا الرجل
الكبير الضخم الأبيض الشعر ، وشمرت بفيض
من الحنو : « وهل أحببت غيرها .. غير أمى ؟ »
فارتبك وارتفعت يده إلى شاربيه وقال : « إيه ؟
ما هذا الكلام ؟ قوى .. قوى .. قوى .. أ ..
أ .. أنا جائع »

فانفجرت ضاحكة وقالت : « هذا أصرح اعتراف
سمعتة أو سمعت به »

وخرجت تنساب لتعد له الطعام

إبراهيم عبد القادر المازنى



ما يثقله من أعباء الحياة ومتاعبها... ثم جاءه
البشير... لقد ابتسمت له الأيام عن طفل هو أمل
الأسرة الخلو، وواحد، ووارث اسمها ومالها...
هو فورتناو؟ ودرج الطفل قرة عين أبيه وأمه ممّا
يسهران عليه، ويحبوانه بمطف منهما ورعاية، ثم
راحا ينشئانه ليكون صينو أبيه فشب وفي عينيه
دلائل الشجاعة والفراة، وفي جسمه سمات القوة
والفتوة...

وفي نَحْوَة يوم من أيام الخريف - والطفل
في العاشرة - انطلق الأب وزوجته يستطلعان
خبر غنمهما، وأراد الابن أن يصحبهما فأبى الأب
إلا أن يظل عند الدار يحرمها

وتصرمت ساعات والطفل وحده ينطرح حيناً
في دعة أمام الباب، تحت أشعة الشمس الهادئة؛
وحيناً يستمتع بالنظر إلى أشجار الغابة الباسقة،
وإلى الجبال الشاهقة على مرمى البصر؛ ويتلذذ حيناً
بالأخيلة الجيلة تضطرب في رأسه حين يخيل إليه
أنه سيزور المدينة يوم الأحد فيرى عمه القائد،
ويجول في أرجائها فيشهد أشياء حرم منها حيناً
من الدهر؛ وسيطرت عليه الفكرة فابتسم، غير
أن صوتاً سلبه من لذة الخيال وأفزعه عن مكانه
فهب يرى... وأحس كأن قلبه ينخلع من الذعر
والخوف، لأن ما سمع هو صوت طلقات نارية سريرة

ماتيو فالكوني رجل عند الحمين، متكفل
المضل، مفتول الذراعين، عريض ما بين المنكبين،
خفيف الحركة كالسنور؛ له عينان كبيرتان تنبعث
منهما أشعة قوية نفاذة، وشفتان رقيقتان، وشعر
أسود جمعد. ذهب اسمه في أرجاء وطنه - جزيرة
قورسيقا - بما له من قدرة عجيبة على إصابة الهدف
فهو أنى رى أصاب، سواء بالليل أم بالنهار. وهو
لطيف المشر، رضى الخلق؛ فاذا جرح أو امتن
فهو عدو لدود فيه العتو والجبروت، ينزل عن
إنسانيته حتى يبلغ من خصمه مأرباً...

رجل ماتيو فالكوني عن مسقط رأسه الذي
نشأ فيه وترعرع إلى ثغر بورتوفيكبو في جنوب
الجزيرة ليعيش هناك عيشة الهدوء والطمانينة في
منزل ريفي وضيق تحيط به غابة متشابكة الأشجار،
ملتفة الأغصان، في منأى عن صخب الحياة ولجها
وقضى دهره من عمره يتمهد بنفسه قطعة من الأرض
وبعض قطمان الغنم، فينال من كل ذلك ما لا يرفعه
إلى صف أعيان الريف وأغنيائه؛ ثم هو سخي سمح
طلق البدين والوجه، سريع إلى الخير، بطيء
عن الشر

تزوج ماتيو من جيوزيا صغيراً فرزق منها
ثلاث بنات تزوجن جميعاً؛ واستطاع هو أن يجد
المعونة في أزواج بناته، غير أن قلبه ما يزال حزينا
يأسف على أن لم يحبّه الله بذكر يحمل عنه بعض

وهو يدس القطعة في جيبه ، ويهيل التبن على المحرم الجريح ؛ ثم انطلق ينفث آثار الدم في دقة وهارة ؛ ثم استاق أمام الباب كأن شيئاً لم يكن ..

وجاء الشرطة — بعد حين — وعلى رأسهم ضابط ... إنه هو تيودورو جامبا ابن عم فورتناو ، وهو فتى يفور قوة ونشاطاً ، يتقصص المجرمين والجناة لا تأخذه بهم رافة ولا شفقة ، ويتقفي آثارهم في غير هواة ولا لين ...

وابتسم الضابط وهو يسير إلى ابن عمه فورتناو يسأله خبر المجرم الفار : « أوما رأيت رجلاً يمر بك الساعة ؟ » قال الصبي : « آه نعم ، رجل يمر بي الساعة ! » قال الضابط : « نعم رجل ذو لحية طويلة ينزف الدم من نخذه » قال فورتناو وهو يعيث بابن عمه : « نعم ، تذكرت ، إنه القس ، لقد كان يمتطي صهوة جواده الجليل يبرو ... » وتار غضب الضابط أن رأى الصبي يهزأ به ، فقال : « لقد رأيتك ، فأين هو ؟ قل أيها الخبيث وإلا ... » وراح الصبي يسخر من الضابط : « أفتراني أستطيع أن أراه وأنا نائم في هدوء ؟ » فقال الضابط الغيظ في شدة : « قل أيها اللعين ، إنه مر بك الساعة ! » ، وأجاب الصبي وهو يبسم في نهك : « أنا فورتناو ، وهذه دار أبي ماتيو فالكوني ، أفتريد أن تستنجم ؟ » ونفذ صبر الضابط ، فاندفع في حلق بأمر الشرطة : « إلى الدار أيها الرفاق ، فلا بد أن يكون هذا الشيطان قد خبأ المجرم ! » . وانطلق الشرطة يصدعون بما أمروا ، وأمسك الضابط بأذن الصبي يمنة وهو يتعمل ويصيح : « إن أبي ماتيو فالكوني لا يرضيه أن يدخل جماعة من الأغراب داره وهو

ومتوالية تقترب منه رويداً رويداً . وأجال بصره فيما حواليه فما بداله غير شبح يداف إليه من الغابة يتكفأ في طريقه ، ويتحامل في مشيته ، من أثر الأين والتعب ، والدم يتقاطر أرسالا من نخذه

لالمجرم ، فهذا مجرم انسل ، والليل ساج ، إلى المدينة ؛ فانحط عليه الجند ، فأسلس وانقاد بعد لأي ثم وجد مهرباً فأفلت يربد الحرية ويحطم قيود السجن وهي تنظره على خطوات ؛ وهم على أثره لا يصيبهم الجهد ، ولا ينال منهم النصب ، يمحطرونه بوابل من بنادقهم ، وهو يدفعهم عن نفسه بالرصاص والحرب في وقت مما

لقد كان ضخم الجثة ، حيواني المظهر ، زرى الهيئة ، رث الملابس ، كث اللحية مرسلها ، أشعث أغبر يبعث في النفس الفزع والرعب ، غير أن الأعياء تركه محطماً ضعيفاً

ثم انتهى إلى الصبي ، ووقف بازائه يطلب إليه أن يجده منهغداً « إنني جيانيتو سانبييروا ؛ إن الشرطة على أثرى ، وأنا لا أستطيع الهرب ، أفلا أجد في دارك ملجأ ؟ » وأشاح الطفل عنه — بادي ذى بدء — وأبى عليه بمض ما طلب ؛ فراح الرجل يهدد ويتوعد ، غير أن الطفل كان يرى ما يقاسى من ألم وما أصابه من كلال فقفز بمبدأ وهو يقول : « لا بندقتك تستطيع أن تصل إلى لأنك تفتقر إلى الذخيرة ، ولا حربتك تنال منى مأرباً لأنني في حصن منها حصين ! » وأحس الرجل بماقبة أمره فاندفع يستمطف الصبي في ذلة ، ويتراض في لين ، ويلوح له بقطعة فضية من النقود يداعبها بأصابعه ؛ فاستيقظت الشفقة والرحمة في قلب الصبي ، ورأى في قطعة النقود أجر ما يقدم من خير فتعلق بها بصره ... ثم انفرجت شفاته عن ابتسامة رقيقة

ثم يتدافعون نحوك يسألونك : « كم الساعة ؟ »
وأنت تبسم . . . وبدا للضابط أن عيني الطفل
قد انبثت منهما شعاع من أمل ، وشعاع من
طمع ، وهو يحدج الساعة بنظراته ، ويقول :
« لا ، لا أريد ، إنه حين تكبر سنى سيمطيني
عمى القائد ساعة أجل من هذه » قال الضابط :
« حقاً ، غير أن لابنه ساعة كهذه ، وهو أصغر
منك سنًا » ، وخيل إلى الصبي أن الضابط
يسخر منه ليستدرجه فقال : « أفترا بي ؟ »
قال الضابط وهو يقدم الساعة إليه ، وقد عاد إليه
الأمل مرة أخرى : « هاهي ذه نخذها ، ثم أخبرني
أين هو المجرم جيانيتو ؟ » ، وتقدم الصبي في هدوء
نحو الساعة رويداً رويداً وهو يراها وهاجة براءة ؛
تحت أشعة الشمس ، تحطف البصر ، ثم أمسك
بها بقلها بين يديه ، وقد استبشر وانبطت
أساريره ، ونفسه تحذته : « ألقى بقطعة النقود إلى
صاحبها ، وخذ هذه فهي أغلى وأثمن ! » ،
واضطرعت في نفس الصبي عوامل الوفاء والجشع ؛
أفيخون عهده وينقض مواعيده ؟ ولكن الساعة . .
الساعة ! أفيغدها بعد إذ احتوتها يدها ؟
وغلبه الحرص والطمع وحب المال جميعاً ،
وهو قبالة ابن عمه الضابط ، ومن خلفه كومة
التبن ؛ فرفع يده في هدوء يشير إلى الوراء . . . إلى
كومة التبن . . .

وتدافع الشرطة ييمثرون كومة التبن هنا
وهناك ، فانفرجت عن جرح لا يستطيع أن يحمل
نفسه ، وفي لحظة البصر نزع الشرطة عن جيانيتو
بندقته وحربته ، وشدوا وثاقه ؛ غير أنه استطاع
أن يدير بصره نحو الصبي ، ومن حجاجيه شرر

غائب ! » ، وراح الضابط يهدد الصبي : « أولى
لك فأولى ! أفلا تعلم أنني قادر على أن أحملك إلى
كورت أو إلى باستيا فألقى بك في غيابة السجن
ترسف في أغلال من حديد ، ثم أضع رقبتك بين
حدى المقصلة جزاء ما فعلت ؟ » ، وأغرق الصبي
في الضحك لما سمع . . .

وارتد الشرطة بعد أن وجدوا الخيبة والفشل
وجاء واحد منهم إلى الضابط يقول : « لم نجد أحداً
فلنتمس طريقاً غير هذا ! »

وبدت الدهشة على وجه الضابط جامبا حين
خيل إليه أنه منى بالاخفاق ، واضطرب حين
لم يجد الطريق إلى فريسته . إن الدار أمامه ،
وهو يستطيع أن يرى كل ما فيها في نظرة خاطفة ؛
فها هي غير حجرة واحدة غارية عن الأثاث ، لقد
سيطر عليه الارتباك ، والصبي إلى جانبه يداعب
قطته ويسم لها هم فيه من حيرة

ياضيمة المجهود ، ويا خيبة الأمل ! لقد هموا
يريدون الرجوع بعد ما بذلوا من جهد ، وما لاقوا
من عناء ، غير أن عيني الضابط لعتا حين بدت له
بارقة من أمل . لقد تهدد الصبي فما أجدى التهديد ،
وتوعده فما أغنى الوعيد ؛ فليطرق باباً غير هذا
عله . . . فالتفت إلى الصبي : « فورتناتو ، لقد
ظننت بك سوءاً ، ولكنني وجدتك شجاعاً ذكياً ،
ليتك تصحبنى ! » قال فورتناتو وهو ما يزال يعيث
بأبن عمه : « جامبا ، أسرع إلى عمالك وإلا اختفى
جيانيتو فلا تعثر عليه أبداً ؟ » وأخرج الضابط
ساعته الفضية وهو يقول : « أفلا تريد أن يكون
لك مثل هذه الساعة ، فتمشي الخيلاء بين رفاقك
في شوارع المدينة ، وقد علقت في صدرك كأنها
وسام ، والناس من حولك ينظرون ويمعجبون ،

يا للخيبة ! » ، ثم التفت فوجد جيانيتو ماقى على سرير من قش ، شدد إليه في غير رفق ولا لين ، وثبت بصره على الرجل فما استطاع أن يحوله وفي رأسه الأمى والأسف ، وفي وجهه العيوس والحزن ، وفي عينيه اللوعة والحسرة ؛ فرأى الرجل يدير بصره نحو الدار فيصق ويقول : « هنا ، هنا دار الخائنين السفلة ! »

أى امرئ تمحدثه نفسه أن يهين هذا الرجل القورسبقي وهو يضمن بكرامته أن تلم ، ويصون شرفه أن يمتن ؟ وبيل له . . . وبيل لمن تنفرج شفتاه عن كلمة يستشعر منها ماتيو بالاهانة والسخرية إن طلقة واحدة من بندقيته ، أو رمية واحدة من حربته هي العقاب الوحيد لمن يفعل ! ثم هو لا يطمئن خاطره أو يهدأ باله إلا أن يفسل الاهانة بدم التبيج الجريء ! ولكن . . . ولكن ماذا يفعل وابنه هو الذى تلم عرضه ولوث شرفه ؟ لقد أحس بوخزات الألم تحز في قلبه ، ورأى الفضيحة والعار فيما فعل ابنه ، فوضع يده على جبينه التسمر والهموم تتنازعه . . .

وأراد الابن أن يترضى الرجل المسكين حين رأى ما ارتسم على وجه أبيه فولى وجهه شطر الدار ومشى يشاقل ثم عاد وبين يديه وعاء ملي لبناً وقدمه في ذلة وخضوع الى جيانيتو ، غير أن الرجل صرخ في وجهه : « تنج ، تنج أيها الـ . . . » ثم التفت الى شرطى الى جانبه يطلب اليه ماء . . . لقد شرب من يد الشرطى وهو كان — منذ فترة — يصب عليه وابلا من رصاص ؛ أما ابن ماتيو . . . ماتيو فالكونى . . .

وانطلق الضابط والشرطة يحملون المجرم الى

بتطير ، ثم بصق وهو يقول : « أيها الـ . . . ! » وألقى الصبي بقطعة نقوده ، وجيانيتو في شغل عنها يقول للضابط : « عزيزى جامبا : إننى لا أستطيع السير ، فسترغمون على حملى ! » ، وشمخ الضابط بأنفه في كبرياء ، وصعتر خدته في صاف ثم قال : « إن نشوة الانتصار ، ولذة الفوز يبعثان في قوة أستطيع بها أن أحملك وحدى على كتفى حتى نبلغ المدينة »

وتفرق الشرطة ، فبعض يأسو جراح جيانيتو وبعض يهين له سريراً من قش ، والضابط بازاظم ينظر . . . وعلى خطوات الصبي فورتناو يدهاب ساعته فرحاً متهالاً . . . وبينما كل في عمله لا ينى ولا يتباطأ هبط ماتيو فالكونى وزوجته . . .

ووقف ماتيو فالكونى حائراً لا يدري مما حوالبه شيئاً ، ولكن جامبا اندفع يقص القصة ويشئى على فورتناو ، ويشكر ما أسداه إليه من خير ، واستطرد في حديثه : « إن هذا المجرم الأثيم قد دفعنا عنه في قوة وشدة ، ثم اندس في التبن ، فما استطاع واحد أن يستشعر وجوده ، ولولا فورتناو . . . » ، وصاح الأب والأم ممأ : « فورتناو ! » ، قال الضابط في هدوء : « نعم ، لولا فورتناو ما استطعنا أن نثر عليه ، ولذهب في الهباء ما عانينا من شدة وما بذلنا من جهد . سأخبر عمه القائد ليرسل إليه جائزة مسنية ، وسأسجل اسمك واسمه في التقرير الذى أرفعه إلى النائب العموى » ، واستشعر الأب شدة الصدمة فصدع قلبه حين بدا له أن ابنه باع شرفه بالثمن البخس ، فصاح من الأعماق صيحة خافتة كأنها صدى خفقات قلبه المكوم : « يا للخيبة ،

المدينة ، وماتيو وچيوزيبا في مكانهما مطرقين وقد اربد وجههما . والصبي بينهما يردد بصره في وجه أمه حيناً وفي وجه أبيه حيناً آخر وقد ذهل عن نفسه . ثم نظر الأب الى ابنه في قسوة وقال في صوت أجش كأنه نصف الرد : « حسن ما فعلت ! » وصرخ الصبي فزعاً : « أبي ، أبي ! » ثم انطلق يبحثو عند قدمي أبيه والعبرات تتناثر من محجريه تسأله المطف والرحمة : فصاح الأب : « تنح ، تنح أيها النذل ! » فجمد في مكانه

ورأت الأم طرف السلسلة يتدلى من جيب صديرة الصبي فقالت : « أنى لك هذه ؟ » قال : « أعطانيها ابن عمي جامبا » فزعها الأب في شدة وألقى بها في عنف على صخرة فتحطمت قطعاً قطعاً وهو يقول : « هذا هو أول خائن في أسرتنا ! » وانهمرت عبرات الطفل مرة أخرى ، وماتيو يحدجه بنظرات قاسية ملتهبة ، ثم صار في صمت نحو الغابة وبندقيته على كتفه ، ثم نادى الصبي فتبسمه وهو يبكي : وانطلقت چيوزيبا على أثرها وقلبا يضطرب ، والأرض تكاد تميد بها من فرط الشجن : وأمسكت بذراع زوجها تستعطفه « ماتيو ، ماتيو ، إنه ابنك » فقال الرجل في غيظ « ارجمي ، ارجمي ! إنه ابني وأنا أبوه ! » فراحت المرأة تضم ابنها اليها في قوة كأنها تريد أن تنزعه من بين يدي أبيه ، وهي تذرف الدمع السخين . وعادت الى الدار تبحثو عند رسم المذراء ، وتصلي في خشوع وضراعة

وفي قلب الغابة ، عند صخرة كبيرة ، وقف الرجل ثم نادى ابنه : « تعال ، تعال هنا يا ولد ، اركع واقرأ صلواتك ! » غير أن الصبي اندفع نحو أبيه : « أبي ، أبي لا تقتلني ! » فزأر الرجل زئيراً

دوى له المكان وتزلزلت منه قوة الصبي « اقرأ صلواتك ! » فامتثل الصبي مرغماً . ثم رفع رأسه بمدحجين ، وفي عينيه العبرات ، فقال الرجل : « هل أنتمها ؟ » فهذا الصبي نحو أبيه « آه ، أبي ! أبي لا تقتلني ! الرحمة يا أبي والصفح ! لن أعود لمثلها . سأطاب الى عمي القائد أن يماثل سجنيته بالحسن . أبي لا تقتلني ! ! إنني ابنك ! لقد أخطأت فأرجو الغفران والشفقة ! » ثم اندفع في حديثه باين ما قسا من قلب أبيه ، ولكن الأب كان قد صوب إليه بندقيته وهو يقول : « فليسأحك الله »

وأراد الصبي أن ينكب على قدمي أبيه يقباهما ، غير أن النية لم تمهله . . لقد دوت الرصاصة فاستقرت في قلب الطفل فخر يتلوى ويتخبط في دمه المتفجر وهو يئن : « آه ، آه ، يا أبي ! »

وقفل ماتيو راجعاً دون أن يلقى نظرة واحدة على جثة الصبي الهامدة

وسمعت الأم — وهي راكعة تصلي عند تمثال المذراء — دوى الطاق الناري فانشقت كبدها أسى ولوعة ، وتمزق فؤادها جزعاً على ابنها وأهاها ، حين بدا لها أنها فقدته الى الأبد : ثم انطلقت في جنون الشكلى تمر كها المصيبة عركاً . وعلى خطوات من الدار رأت الأب يمود مطرقاً ذاهلاً ، تتوزعه الهموم وتتناهيه الأحزان بعد أن نفذ القضاء ، فاندفعت إليه وهي تصيح : « ابني ! ماذا ، ماذا فعلت ؟ » فأجاب الرجل في صوت خافت ضعيف فيه أنات المغثود : « المدل ، المدل يا عزيزتي چيوزيبا ! » قالت : « وأين هو ؟ » قال : « هناك هناك في المنحدر ، سأدفنه . لقد مات سأستغفر له ربى ! »

لمس محمود صبيح



— بخير
— لقد فانتى أن أهنتك على نجاحك فى انتخاب
المجالس البلدية الأخير حتى أن زوجى كانت عازمة
على تهنئة مسز بارنت
— يسرنا أن نراكا أنا وزوجى فى أى وقت
تشاءان
— ولكن خبرنى يا سيد بارنت لم تفكر فى
بناء بيت جديد وبيتك الذى أنت فيه الآن فسيح
جميل ، فصمت بارنت قليلاً ثم قال : حسن ؛ إنا نريد
أن نعيش خارج البلدة ، ثم إن بيتى الآن قد قدم
ثم أخذت العربى تهبط بهما الأرض حتى
وصلا أخيراً إلى البلدة فوجدوا الشوارع لا تزال
تفيض بالناس والمصابيح تلقى بأنوارها على واجهات
الحوانيت ، فلما أتيا المنزل أسرع الزوجة
والأطفال إلى الباب يستقبلون رب البيت بعد
غياب النهار كله

فلما رأى بارنت هذا صاح مبتهجاً : « إنك
لا شك سعيد يا « دون » بهذه الزوجة وهؤلاء
الأطفال ، كم أود أن يكون لى بيت كهذا » .

فأجابه دون مبتهجاً : « حسن . نعم إنا نعيش
هنا عيشة هادئة مطمئنة » . فقال بارنت وهو
يحاول إخفاء الشعور بالمرارة والألم : « إن بيتى

كان السائر بمحاذاة التل الشرقى لا يكاد يسمع
رفيقه الذى يسير والتل الغربى ، فقد كانت الأصوات
تغيب وتختفى فى مداخل البلدة التى تفصلهما .
أما فى الليل فقد كان سكان تلك البلدة يسمعون
أولئك الفلاحين الذين يملأون الجو غناء وصغيراً .
وقد اتخذ الناس هذين التلين طريقاً للوصول
إلى البلدة . فى ذات مساء قبل أن يربداً لون الشفق
ركب رجل نعابه وأخذ يتدحرج من ذلك التل
الشرقى إلى البلدة وقد حمل فى يده حقيبة صغيرة
ومظلة ، ولكنه لم يكدهمضى فى طريقه حتى سمع
صوتاً يقول : « مرحى « دون » ! أهو أنت ؟ »
ثم وقف الشاب الأنيق المنرف بمرسته وقال : « هيا
اصعد حتى تصل إلى دارك »

فالتفت الرجل إلى مصدر الصوت فحيا صاحبه
مبتسماً وقال : « أشكرك يا سيد بارنت » ، ثم
ركب معه

كان بارنت أكثر غنى وأنعم عيشاً من صاحبه
« دون » المحامى الناشئ ، إذ كان أبوه من كبار
تجار الصوف فاستطاع أن يجمع ثروة طائلة أصاب
الابن بعضها بجانب ثقافة عالية وخلق سمح كريم .
ثم أخذ الصديقان يتجادلان فقال « دون » :

— كيف حال مسز بارنت ؟

الذي أقيم فيه صالح لي كما تقول ، فقد بناه جدى منذ عهد بعيد ونشأ فيه والدى وقد ولدت فيه أنا وقضيت فيه سنى شبابهى ولكنى أشعر الآن بالحاجة إلى منزل جديد »

— لماذا ؟

— سمياً وراء الهدوء ، إنى أطلب السعادة فلا أجدها

ثم هم «دون» بالدخول فتتمتر في المظلة والمحفظة فزات قدمه وهوى على ركبتيه ، فأسرعت اليه زوجه ، وقد تجاهات وجود بارنت وأعانتة على الوقوف ثم قبلته قائلة : أرجو ألا يكون قد أصابك شيء يا عزيزى . أما الأطفال فقد أحاطوا بالدم وهم بصيغون : « بابا بابا » فقال بارنت وهو يدير عينيه بين الزوجة والزوج : لا بأس ، ثم حياها وانصرف ، وقلبه يتلفت إلى تلك المرأة

عاد بارنت الى منزله فلم يجد زوجه إذ علم من الخادم أنها ذهبت الى «الخطاطة» . فصاح الرجل متعجباً : « أى خطاطة فى مثل هذا الوقت ؟ »

— لقد تناولت غداءها وخرجت وهى تعتذر

لك عن صحبتها هذا المساء

— والسكنها كانت تعلم بمجيئى الليلة

— نعم ياسيدى

— اذهبي اليها وأخبريها بأمرى

ثم جلس بارنت إلى المائدة يتناول عشاءه فى تراخ وكسل ، ومسرعان ما تذكر صديقه «دون» وحياته السعيدة ثم أخذ يقارن بين الحياتين ، ثم نهض أخيراً وقد امتلأت نفسه حنقاً ودلف الى الخارج ، وكانت الشوارع لا تزال تفيض بالأنوار تحييه كلما أبصر اسم أسرته على إحدى واجهات

الحوائت ، فذكرته هذه المناظر بما كان عليه والده من مجد وشهرة . ثم مضى فى طريقه حتى وصل الى منزل صاحبه «لوسى» . فلما رآه اندفع الدم الى وجهها وألقت عليه نظرة كلها دهشة واستخفاف ؛ فلما رأى بارنت منها هذا قال : « إنى أعرف أنه ليس لي عمل هنا ، ولكنى شعرت برغبة قوية الى رؤيتك والاطمئنان عليك . هل لك أن تمنحني يدك لترى كم من صرة أمسكنها »

— إنى أفضل أن أنسى الماضى لأن أذكره فانى لا أجده فيه ما يستحق الذكر أو يسمح لك بالجيء الى هنا

— ولكن ليس فيه ما يؤلم . انى لا أضايقك كثيراً يا «لوسى»

— إنى لم أتشرف حقاً بزيارتك من مدة ، ولكنى لم أكن أنتظرها الآن . أرجو أن تكون مسر بارنت بخير

— نعم . نعم . أو على الأقل أظن هذا

-- كيف هذا وهى زوجك ؟

وفى هذه اللحظة أيقظت كلمات ذلك الزائر الفضولى «كناريا» كان ينام فى قفصه ، فهب الطائر مذعوراً وأخذ يضرب القفص بجناحيه ، فذهبت إليه لوسى ودنت منه وتمتمت ببعض الكلمات . فسكن الطائر إليها وعاد إلى هدوئه الأول . والحقيقة أنها عمت هذا الترحيح نفسها من عناء الحديث مع ذلك الضيف

ثم استطرد الرجل قائلاً :

« إنى لم آت لأتحدث عن مسز بارنت بل أتيت لأتحدث عنك أنت وحدك ولأقف على حالك منذ ذلك المصاب العظيم » . قال هذا وهو يلتفت

إلى سورة أبيها التي كانت معاقبة على الحائط
— لا بأس ؛ أشكرك

— ماذا كنت تعملين عندما جئت إلى هنا؟
أنظر زين الأزهار ؟ — وعلى ضوء الشمعة ؟

— كنت أعمل الحوائش فقط . أعمل هذا
ليلاً توفيراً للوقت . فاني ملزمة بانجاز ثلاثين غطاء
في نهاية هذا الشهر

فنظر إليها بارت وقال بصوت المشفق عليها :
« حرام أن تجهدي عينيك هذا الاجتهاد —
لا . إني أفضل العمى على أن أرى هذا بعيني »

فصاحت لوسى في وجهه : « وهل هذا هو
الوقت والمكان اللذين تذكر فيهما هذه الأشياء —
لقد اعتدت أن تحترمني وتحترم نفسك . أرجو
ألا تنطق بمثل هذا الكلام وألا تأتي إلى ثانية .
فاني لا أظن أن زيارتي ذات بال عندك »

— ذات بال ؟ لقد أتيت لأرى صديقاً قديماً
عزيزاً — لا لأن أذكر هذه الأشياء . ولقد أتيت
لزيارة المرأة التي أحب ؛ فلا تنصبي ، فاني لا أستطيع
أن أمنع هذا . إن كثيراً من الأشياء قد دفع بي
إلى هنا — فقد حدث في هذا المساء أن قابت
صديقاً ، فلما رأيت ما ينعم فيه ذلك الصديق من
حياة منزلية هائلة ، مع أن إirاده لا يصل إلى
عشر إيرادى استولى على شعور غريب دفعني إلى
هنا . أم إنه مصيرى الذى ساقنى إلى هذا . إني
لا أعرف كيف أفلت منى . فقد كنت المرأة التي
كان يجب أن تكون زوجتى ، ولكنى تركتك
تفلىتن . بالى من أحق !

فأجابته لوسى ، وقد اغرورت عينها
بالدموع : « لا تثر هذا الموضوع من جديد .

إني مخطئة أن أشاركك هذا الحديث . يجب ألا
تأتى إلى هنا . إني أخشى الفضيحة

— حقاً . ليس لى حق فى هذا ، سوف
لأعود ثانية

— إنه لمن حق الطبيعة البشرية أن يظن
الانسان أن الطريق الذى لم يسلكه هو الأصوب .
فتندم الآن قبل أن تعرف إذا كنت أرضى
بك زوجاً

وفى هذه اللحظة التقت عينها بعينيها فلم تقو
على النظر إليه وخانها صوتها ، ثم صمتا برهة ،
وأخيراً استأنفت لوسى كلامها فقالت : « إني
دونك جاهلاً ومالاً . لذلك لم يكن أمر زواجنا
ميسوراً ، والآن أرجو أن تتركنى »

— أجل ولكنى لن أقابل فتاة أعز منك .
ثم مضى

وفى اليوم الثانى جاء « دون » لزيارة صديقه
بارنت فلم يكده يدخل البيت حتى رأى مسر بارت
خارجة من المنزل ، فالتفت إلى صديقه وقال :
« أود أن يصلح أمركم قريباً »

— إذن لقد سمعت بنها الانفصال الأخير ؟
خاول « دون » أن يخفى سروره فى قلبه بأن
قال وهو يتظاهر بالأسف : « لا . لم أسمع عن شيء
مهم . لكن لدى بعض أخبار غامضة عن ذلك »

— قد تظن أن الأمر تافه ، ولكنى أرى
فيه غير ذلك ، والآن كيف حال زوجك وأطفالك ؟
— بخير أشكرك ، فقد خرجوا اليوم كلهم

للزفة . إنك عصبي المزاج يا سيد بارت ، وإني
لأذكر أيام التلهة ، وكيف كنت تنور إذا ما مس
أحد شعورك بكلمة

— أجل إنك مصيب يا صاحبي ، وهذا راجع إلى أني أطلب دائماً الهدوء في المنزل فلا أجده ، فلو أني ظفرت به لكان عليّ كل شيء آخر

— لقد فكرت أكثر من مرة في إصلاح ما بينك وبين زوجك ، ولكني لا أدري إذا كانت هذه الفكرة تروقك ، على كل حال سأعرضها عليك ولك أن تأخذ بها أو تتركها ، والحق أن زوجي هي صاحبة الفكرة ، فقد رأت أن تذهب إلى مسز بارنت وتتفاهم معها . إنني واثق من أنهما ستصلان إلى نتيجة مرضية . فان زوجي لها قدرة عجيبة على كسب بنات جنسها

— وبني جنسها أيضاً ، إنها امرأة ذكية الغواد عظيمة التأثير ، وإنك لحسن الحظ بها

— قد يكون هذا ، إن زوجي مستعدة للقيام بهذه الوساطة إذا وثقت أنها جديرة بمركز مسز بارنت الاجتماعي

— إنني أشكرك كثيراً ، ولكنني أخشى ألا نصلا إلى نتيجة ، ثم حياه وانصرف

وفي ذات يوم كانت السيدتان راكبتين قارباً صغيراً يقطع بهما عرض النهر جيئة وذهوباً .

بينما كانت السيد بارنت في طريقه إلى منزل « لوسي »

كانت « لوسي » في حديقة المنزل تقطف بمض الأزهار عندما دنا منها بارنت ، فلم تكدر تراه حتى قالت له في ابتسامة عذبة رقيقة وهي تمد يدها إلى إحدى الزنابق الحمراء : « لقد ذكرت لك كثيراً يا سيد بارنت منذ أن تركتك زوجك ، وها أنت هنا ... »

— نعم « لوسي »

— إلى أين أنت ذاهب الآن ؟

— إلى الميناء

— طبعاً . لقد بدأت طلائع الصيف وأخذ الناس يهرعون إلى الشواطئ

— لوسي . أراك اليوم ضامرة العود ، صاحبة الوجه — خبريني هل يمكنني أن أساعدك . إن الجو اليوم صفو والهواء رخاء عليل

ثم مضى ، ولكنه لم يكدر يذهب بعيداً حتى هبت عاصفة شديدة غيرت وجه الطبيعة ، فبدت مخيفة غاضبة ، وعندما وصل إلى الميناء تقدم إليه أحد البحارة وهو يقول : « خطب عظيم يا سيدي »

— ما هذا يا رجل ؟

— لقد ركبت اليوم سيدتان هما مسز بارنت ومسز دون أحد القوارب طلباً للنزهة ، ولكنهما لم يبتعدا عن الشاطئ كثيراً حتى هبت عاصفة شديدة أطاحت بالقارب بعيداً فانكفأ على من فيه

— أين ؟

— أسرع إلى تلك الصخرة واطلب من ذلك الصبي الواقف هناك أن يدلّك على مكان الحادثة

— وهل أنقذت السيدتان ؟

— لقد أنقذوا واحدة

— من ؟

— مسز بارنت ، أما مسز دون فيخشى أن تكون قد غابت في جوف النهر ، فأسرع بارنت إلى مكان الحادث فرأى جماعاً من الناس قد تجمعوا هناك ، فنفذ وسط ذلك الجمع ، وهناك رأى امرأة ملقاة على الرمال يعلو بدنهما ثوب بنفسجي وفي يديها قفاز أصفر فمرفأها زوجها

عاد الرجل بزوجه إلى المنزل ودعا إليها بعض

فأخذ ينظر إلى زوجه المسجاة في صمت وذهول ؛
لقد كانت تكبره بسنوات ، ولكنها لم تخط بعد
سن الشباب ، فأخذ يتفرس فيها ، فرأى قسبات
وجهها أكثر فتنة وسجراً ، ورأى فيها الدقيق
وشفتيها الرقيقتين قد التصقتا ، وجبينها
المشرق الوضاء يموج فوقه شعر أسود جميل ،
فصاح متعجباً : « إن هذا الجمال لن يموت ! »
ثم عاد ثانية إلى النافذة فرأى الدخان لا يزال
يتصاعد من المدخنة في بيت صديقه ، ورأى
« الكناري » لا يزال في القفص ، فهجمت عليه
الذكريات القديمة ، وأخذ يفكر في زوجه
ولوسى ونفسه

قضت الزوجة أسبوعاً طريحة الفراش ، ثم
فاضت روحها بين يدي زوجها ، فأمرع الزوج
إلى إعداد الجثة ومواراتها التراب ، ولكنه لم يكبد
يهم بالخروج حتى دخل عليه خادمه بخطاب من
صديقه « دون » يقول فيه :

عزيزى بارنت :

رأيت من الأفضل أن أعلمك بأنى سأزوج
من « لوسى » على رغم أنى لم أعلن هذا بين أصدقائى
نظراً للحداد ، وعلى ذلك ستكون هناك حفلة
خاصة ، ولكنى أود أن تشهدها وأن تصحبنا إلى
الكنيسة في الساعة العاشرة . ما

أخذ بارنت يتلو هذا الخطاب مرّة ومرّة ،
ثم وقف قليلاً يفكر في الأمر

لم يكن هذا الرجل بالواهن العزم ، الضعيف
الارادة ؛ بل كان ذا قدرة عظيمة على احتمال
الخطوب والصبر على المكار ، فلم يهن له عزم أمام
هذين الخطيبين اللذين ألباه في تلك اللحظة

الأطباء ، والغريب في أمر هذا الرجل أنه شعر أن
حبه لزوجه هو الصلة الوحيدة التى تربطه بالحياة ،
ثم أمرع إلى صديقه دون في مكتبه ، وماكاد
يفضى إليه بذلك النبأ الفاجع حتى هب الرجل
مذعوراً وبقي واقفاً لا يدري ماذا يعمل ، ورجأة
أجهش بالبكاء فجذبه بارنت من يده وذهباً معاً
إلى الميناء ، حيث بقيا زمناً ينتظران إخراج الجثة ،
ولكن النهر كان لا يزال هائجاً فلم يعثر الفواصون
عليها ، فعاد بارنت إلى منزله تاركاً دون مع بقية
الأصدقاء يرقبون الطريقة ، فلم يكبد بخطو عتبة
الدار حتى وجد الطبيب خارجاً ، فقال له : « خير »
فأجابه الطبيب : « قد عملنا جهدنا ، ولكننا

لم نصل إلى نتيجة ، إنى أشاطرك هذا المصاب »
فلم يقدر الرجل شعور ذلك الطبيب كثيراً ،
إذ ظنه يتهمهم به ، ولا سيما وأنه كان واقفاً على
النزاع الأخير ، ثم أردف الطبيب قائلاً : « أرجو
ياسيد بارنت أن تنتهى من ذلك الأمر قريباً »

فأجابه بارنت قائلاً : « دعك من هذا الآن ،
وامض إلى الميناء فقد يكون اللبد دون فى حاجة
إليك » ، ثم دخل المنزل فرأى الخدم خارجين من
غرفة زوجه ، وقد بدا عليهم الحزن واليأس ،
فأسرع إلى الغرفة ووقف صامتاً برهة وهو ينظر
إلى السرير ، ثم مضى إلى غرفته الخاصة وظل
يقطعها فى خطى متتدة ثقيلة ، وقد شعر أن كل
شئ قد مات فى هذا البيت ، فلم يعد يسمع همساً
أو نفساً . فذهب إلى النافذة وأخذ يسرح نظره
فى البلدة الصاخبة ، فرأى الدخان يتصاعد من
إحدى المداخل البعيدة ، فأدرك أن لوسى تنهأ
لعمل الشئ كماداتها . ثم عاد إلى غرفة النوم

ولم يكن أحد قد سمع بموت زوجته ، ولم يرد أن يخبر صديقه « دون » في ساعة زواجه ، فقام بأعداد كل شيء بنفسه ، ولما انتهى من ذلك أسرع إلى الكنيسة فرأى « دون » و « لوسى » ساجدين أمام الهيكل وحولهما بعض الناس ، فتقدم إلى « دون » وهناك ، ثم التفت إلى « لوسى » وهو يتوقع أن يرى في عينها بريق الأثم والندم ، ولكنه وجدها مأخوذة بالموقف الجديد ، فهناها وانصرف ، فقال له « دون » :

— انتظر حتى تصحبنا إلى المنزل .

فأجاب بارت : « لا . لا . لست مستعداً لهذا . سأقف في الخارج مع الواقفين حتى تركبا العربا إلى المنزل — ثم أراقب ذلك الشعور الذي يغمرني عندئذ . فضحك الزوجان ثم ابتسم بارت وخرج فلما انتهت الحفلة وركب الزوجان وانصرف المدعوون مضى بارت في خطى متعثرة وفكر شارداً إلى مدافن البلدة وهناك انحنى على قبر زوجته يرفه عن نفسه بالبكاء ثم عاد إلى منزله وقد عزم على أمر عظيم

فلما استقر به المكان أرسل جملة رسائل إلى شركائه ثم دعا أحد المحامين وهو صديق قديم لوالده وطلب إليه أن يبيع له جميع أملاكه وأن يرسل إليه ثمنها وفي اليوم التالي كان بارت في طريقه إلى حيث تقوده قدمه

لكنه قبل أن يغادر البلدة أرسل إلى صديقه « دون » ينبئ بموت زوجته في الساعة التي وافاه فيها خطابه الذي يملأه فيه بزواجه من « لوسى »

إن عشرين عاماً لا تمضي دون أن تترك أثراً في

الصخر الجلود أو المدن الصلب ، ولكن هذه المدة وإن بدت طويلة في عمر الإنسان لا تذكر بجانب عمر الإنسانية ، ولا تترك فيها شيئاً وأخيراً بعد عشرين عاماً عاد بارت إلى موطنه الأول الذي لا يحول عنه ولا يتحول . فرأى وجوهاً غريبة ومعالماً جديدة ، ومضى يسأل عن شريكه القديم السيد « واتكنز » . فصادف ابنه فسأله عن والده فقال له الابن : « لقد مات أبي من مدة » — آه يؤسفني أن أسمع هذا — لقد تركت

هذه البلدة من زمن بعيد

— ولكن هل الشركة قائمة الآن ؟

— أجل إنها لا تزال قائمة ، ولكن أسقط منها اسم بارت . ذلك الاسم الخيالي الذي لا أعتقد أن صاحبه قد عاش بيننا وسامح في هذه الشركة — ألا يزال « أندروجون » يعمل مهندساً للشركة ؟

— أوه ! لقد مات يا سيدي

— وكيف حال قسيس كنيسة القديسة ماري مستر « مدروز » ؟

— لقد توفاه الله منذ سنوات عديدة

فصمت بارت برهة وقال : « كيف حال مستر « دون » المحامي ألا يزال يعمل في المحاماة »

— لا يا سيدي ، لقد مات منذ سبع سنوات

فصمت بارت ثانية ، وشعر بقشعريرة تسرى في بدنه ثم قال : « وهل مسز دون لا تزال على قيد الحياة ؟ » قال هذا وهو يكاد يقضم شفثيه بأسنانه

— نعم إنها لا تزال حية وتقيم في المنزل القديم

— مع أطفالها طبعاً

زوجي قد مات منذ أمد بعيد وأنى أعيش وحيدة
الآن اللهم إلا بمض زيارات من بنات زوجي مستر
« دون »

— وقد أصبحت أنا شيخاً وحيداً

— أين قضيت هذه المدة الطويلة ؟ ولماذا
اختفيت عنا فجأة ؟

— حسن يا لومى ، لقد أمت مدة في أمريكا
وزمناً في استراليا . وسنوات في الهند ، وفترة في
جنوب إفريقيا ، وهكذا فلم أملك في مكان واحد
كأترين

أما لماذا اختفيت فجأة فأنت تعرفين السبب .
ألم تفكرى مرة ؟

— لا — لم أفكر — ولا أى واحد آخر قد
فكر في هذا

— حسن . فكبرى الآن . ثم انظري إلى
وأخبريني إن كنت لا تعرفين

فنظرت إليه لومى في ابتسامة رقيقة وقالت :
« أظن أنه ليس من أجلى »

فهز الرجل رأسه وابتسم ابتسامة حزينة فقالت :
— ألانى تزوجت « دون » ؟

— نعم ، وفي اليوم الذى أصبحت فيه حراً
لأن أطلب يدك . إذ مات زوجي قبل ذهابك مع
« دون » الى الكنيسة بعشر ساعات ، ولقد ذهبت
إليها عقب فراغى من الدفن

فألقت عليه لومى نظرة كلها حب وعطف
وقالت : « لم أفكر في هذا ، ولكنى أعرف أنك
أظهرت لى بعض الشعور الطيب مرة ؛ ثم إنى لم أتزوج
إلا وأنا أعتقد أن زوجك لا تزال حية . أظنك في
حاجة الى الشاى . لقد اعتدت أن أشرب الشاى

— لا — ليس لها أطفال — إلا بنات زوجها
« دون » من زوجها الأولى ، وقد تزوجن كلهن
فهى تعيش الآن وحيدة
— وحيدة ؟

— نعم يا سيدى وحيدة
فشكره الرجل وانصرف ، ومضى إلى الفندق
فتناول غداءه ثم ارتدى ملابسه وحقاق ذقنه وخرج
إلى بيت لومى كما كان يفعل قبل ذلك بعشرين عاماً
فلما وصل إلى الدار وجد نوراً ضئيلاً ينبعث
من إحدى الغرف ، والسكون يخيم على المنزل فدنا
من الباب وقرعه فأسرع الخادم وفتحه وقال :
« ما اسمك يا سيدى ؟ »

— صديق قديم
فمضى الخادم وأخبر سيده بذلك . فقالت له :
« ماذا يشبه ؟ »

فأجابها الخادم . « إنه رجل قد وخط الشيب
فوديه »

فنهضت المرأة التى كانت يوماً ما الفتاة « لومى »
وقد ذبت الوردتان اللتان كانتا على خديها وعرف
الشيب طريقه إلى شعرها . ولكن عينها لم تفقدا
سحرهما وقوتهما ولم تستطع المشروبات عاماً أن
تذهب بكل ذلك الجمال وذلك السحر
— ألا تعرفيننى يا لومى ؟

— لقد عرفتك منذ رأيتك — إنى لأعرف
لماذا كنت أفكر دائماً فى عودتك — لقد قالوا
إنك مت ، ولكن لم أصدق قولهم

— آه لقد مضى زمن طويل على لقائنا الأخير
— نعم . ماذا رأيت فى طوافك بجانب
ما رأيت فى هذا المكان المنزل . إنك تعرف أن

بدلاً من المشاء منذ وفاة زوجي فهل تسمح وتتناوله
ممي ؟ »

فأظهر الرجل رغبته في الشاي وسرعان ما أعد
لها . فجلسا يشربان ويتحدثان ثم أخذ بارت يسرح
بصره في الغرفة وأخيراً قال :

— أرى تغيراً في نظام الغرفة . ففي مكان
« البيان » الآن كان يقوم بمض أوراق الحائط وبها
بعض البطاقات والرسائل ، وفي ذلك الركن قرأت
ذلك الخطاب الذي أرسله إلى دون منذ عشرين
عاماً يعلمني فيه بزواجه منك . فتركت المنزل ولم
أعد إليه إلا الآن

— آه لقد فهمت كل شيء .

ثم أوقد المدفأة واستأنفا الحديث ، وأخيراً
قال بارت : « لوسى ! إن بعض الشيء أفضل من
لا شيء ، فان كان الوقت قد فات فان ما بقى فيه
خير من عدمه . هل تتزوجين مني الآن ؟ »

فتراجعت المرأة مندهشة . ولكنها لم تكن
تجهل الموقف تماماً ثم قالت :

— ماذا ؟ إنى لا أتزوجك ولو وهبتني هذه
الدنيا كلها

— حتى بعد هذا ؟

— لو أنى كنت أفكر في الزواج لفضلتك
على سواك ولكنى لا أفكر فيه الآن ولا بعد الآن
— ولكن ألا تغيرين من رأيك هذا ؟

-- إنك لا تدري ماذا تقول . إنى لا أستطيع
أن أقول إنه كلام مضحك لأنى أراك تتكلم جداً
ولا أستطيع أن أصف الجد بالزاح

— أجل إنى جاد . فقد فكرت في هذا منذ
شهرين وأنا في مدينة « الرأس » لكنى أجد منك

إغفاء وسداً . إنى أتكلم جداً

— وإنى أعارض في أية فكرة في الزواج

— حسن فلأنصرف ، مادام الأمر كذلك .
ثم نهض يتأهب للخروج ، فأعانتة على لبس معطفه
وودعته حتى الباب

فقال لها : أسمعك مساء . أرجو ألا أكون
قد أسأت إليك

— لا ، لا ، بل إنى أرجو منك هذا

فابتسم قليلاً وقال : « سأقلب أوجه الرأى
وأرى فيما بعد . أسمعك مساء »

ثم رافبته حتى اختفى في الطريق فمادت الى
غرفتها وأوصدت الباب دونها ثم استلقت على
فراشها وأخذت تستعيد صور ما حدث منذ لحظة .
وكيف تلقى صاحبها ذلك الرفض في ثبات وهدوء
كأنه كان يعتقد أنه لا يستحق إلا هذا . لقد كان
رجلاً في هذا الموقف . بل كان أكثر من رجل .
ثم نهضت الى المراة وأخذت تتطلع فيها فرأت أنها
لا تزال تحتفظ بكثير من جمالها القديم . ثم بدا لها
رأى جديد

أخذت ترقب عودته يوماً بعد يوم ولكن
كبرياءه أثبت عليه أن يعود إليها . وقد أخبرها أنه يقيم
بالفندق . فلما طال الانتظار ذهبت اليه تسأل عنه
فقبل لها إنه غادر المدينة في الصباح ولم يحتفظ بفرفته
— ألم يترك عنوانه ؟

— لا

فمادت الى منزلها ساهمة مهمومة موطونة العزم
على الانتظار

فانتظرته الأيام والسنين ولكنه لم يمد

نظمى خليل



مِنْ أَعْمَاقِ النُّفُوسِ

اعتراف في العصر

لألفريد رى موسى

بقلم الأستاذ فليكنس فانس

الجزء الثالث

الفصل الثالث

ورجعت إلى البيت ، فدعوت لأريف ووصفت له المسكن المحاط بالحديقة الصغيرة عند مدخل القرية واستفسرت منه عن سكانه ، فقال : إن من يقطنه سيدتان إحداها عجوز مشهورة بالقوى والأخرى تدعى مدام بيارسون وهي السيدة التي رأيتهما . ولما استعملت عنهما وعما إذا كانت زارت والذي من قبل قال : إنها تعيش منعزلة وإنه قليلا ما رآها عند والذي ولم استرده إبطا ، بل عدت إلى ممشي الزيفون وجالست على مقعده ، فاقترب الجدى مني بلاطفي فشعرت بحزن عميق يستولى علي ، ونهضت أرسل بصري على الطريق التي كانت مدام بيارسون قد انجذبت إليها ، ثم اندفعت أنخطاها وأنا ذاهل حتى توغلت في الليل

وكانت الساعة الحادية عشرة مساء ، عندما خطر لي أن أعود أدراجي ، ولكنني رأيت مزرعة قريبة مني فتوجهت إليها لأتناول فيها قدح لبن وقطعة خبز ، وكنت من جهة أخرى شعرت بنقطة كبيرة تتساقط من الغمام منذرة بمصافاة شديدة ، فقصدت بيت المزرعة وطرقت بابه ، فأجابني أحد بالرغم من وجود نور فيه ، فتقدمت إلى النافذة ، وتطلعت فإذا في الباحة نار مشبوبة والزارع الذي كنت أعرفه جالس قرب فراشه . وضربت على زجاج النافذة لأناديه فإذا بالباب يفتح فجأة ومام بيارسون تطل منه سائلة : من الطارق ؟

وما كنت لأتوقع أن أرى هذه السيدة فاختفى عليها الندهاشي

دخلت الغرفة ملتصقا بالانتحاء من المار وإذا كنت أتساءل عن سبب وجود هذه السيدة في هذا المكان في مثل هذه الساعة المتأخرة ، سمعت أنينا ، فأدبرت وجهي نحو مصدره فإذا امرأة الزارع

وكنت أتمشي ذات مساء عند مدخل القرية تحت ظلال الزيفون فرأيت سيدة فتية تخرج من أحد المساكن المنفردة وكانت مقنعة ومرتبدة أثوابا على غاية من البساطة ؛ غير أن قامتها الهيفاء ، وخطراتها الرشيقية استوقفتني فاتبعتهما بنظري . وعندما وصلت إلى المرح كان هنالك جدى أبيض يرتدى منفردا فلما رآها قفز للاقائها ، فأمرت يدها على رأسه ، وتلفتت يمينا وشمالا كأنهما تفتش عن أوراق خضراء تقطفها له ، وكان قربى شجرة من التوت البري فقطعت منها غصنا ، وتقدمت به نحو الجدى فتقدم هو أيضاً نحوى ولكن بخطوات متمهلة ، حتى إذا دنا من الغصن وقف وجلا ينظر إلى صاحبه كأنه يتوقع صدور أمرها ، فأشارت إليه لتشجعه على الاقدام ، غير أنه ابث خائفا حتى جاءت ووضعت أناملها على الغصن فاخطفه الجدى من يدي . والتفتت المرأة المجهولة إلى مسلة وسارت في طريقها

عن وصفه كل بيان

واشتد أنهما المطر وغرقت الحقول المقفرة

بالظلام تمزقه من حين إلى حين بروق خاطفة تتبعها
قمقمة الرعود ، فكان زئير العاصفة وأزيز الريح
وثورة العناصر خارج الكوخ يزيد رهبة ما في داخله
من صمت خاشع ، فيبدو المشهد أمامي أشد روعة
في قدسيته

و كنت أجيل الطرف فيما حولي على الجدران
الحقيرة ، وزجاج النوافذ تفرعه الأمطار ، والضباب
الكثيف تقذفه العاصفة كالمدخان ، فأرى بأس
الزارع في جزعه الجامد ، وزعر الأطفال ، وهذه
المدنفة تحاصرهما كل هذه العناصر النائرة الصاخبة ،
وأرى قربها على هذا المسرح الفجيع هذه المرأة
المنتصبة بشحوبها ولطفها تذهب ونجى كأنها
تجس الأرض جسا وهي مستفرقة بما تهتم به ، فلا
تبالي بالعاصفة ولا بأحد ممن ينظرون إليها حتى
كأنها لا تبالي بجرائنها وإقدامها . فكنت أشعر
أن بهذا العمل المبرور من الصفاء في رسالته ما هو
أبهى من صفاء السماء ، وقد انقشعت عنا الغيوم
فأنظر إلى هذه المرأة كأنها مخلوق أسمى من البشر
لأنها وقد أحاطت بها كل هذه المفجعات لم يداخلها
الشك لحظة في وجود ربها ورحمته

من هي يا ترى هذه المرأة ؟ ومن أين أتت ؟
وهل هي منذ زمن بعيد إذ يذكر الناس أنها كانت
بائمة ورود ؟ لماذا لم أسمع بها من قبل ؟ لقد جاءت
وحدها إلى هذا الكوخ في مثل هذه الساعة فهي
إذا لا تسارع إلا إلى حيث تدعوها المصائب
والأخطار ، فتتجول تحت العواصف بين الغابات في
الجبال مقلنة تحمل الحياة لمن يحتاجون إلى الحياة .

منطرحه على سريرها ، وقد رسم الموت طابعه
على وجهها

وقعدت مدام بيارسون نجاه زوج العليقة وقد
انهدم في جزعه وحزنه ، وأشارت إلى بدم الانيان
بأقل حركة لأن المريضة كانت نائمة ، فأخذت
مقعداً وجلست منتظراً مرور العاصفة

وكانت مدام بيارسون تنهض من آن لآخر
تقرب فراش المريضة ثم تعود لتقول للزارع بعض
كلمات بصوت خافت . وكان أحد أطفال البيت قد
اقترب مني فأجاسته على ركبتي ، فقال لي : إن هذه
السيدة نجى كل مساء لميادة أمه وأنها تمضي
الليل عندهم بعض الأحيان لأنها كانت تعتنى
بالمريضة لمدم وجود راهبات في هذه الأنحاء ،
وأضاف الولد إلى هذه المعلومات قوله بصوت جد
منخفض : — ليس من ممرضة سواها ولا طبيب
عندنا إلا الطبيب الجاهل ... أما هي فتدعى بريجيت
الوردية ، أفلا تعرفها ؟

فقلت : لا ولكن لماذا يلقبونها بالوردية ؟

فقال : لا أدري ولعلها احتفظت بهذا اللقب

منذ كانت بائمة ورود

وكانت مدام بيارسون نزع قناعها ، ولما نزل
الولد عن ركبتي نظرت إليها ، فإذا هي واقفة أمام
سرير المريضة تقدم لها كأساً لتشربها وقد انتهت
هذه المريضة من نومها ، وكانت الممرضة شاحبة
الوجه ممتعة اللون ذات شعر أشقر يضرب إلى
الرمادي ؛ وما أدري ما أقول عن جمالها غير أنني
حين رأيتهما تحديقاً بيمينها السوداء بين المريضة ،
والمريضة تعلق أبصارها بها ، رأيت بين لحظات
هذا الاحسان وهذا الامتنان نوعاً من الجمال بقصر

وبينما تحمل كأس الدواء للأعلاء لا تنسى أن
تلاطف جديها الأبيض في طريقها
إن هذه المرأة تسير بخطواتها المترنة الهادئة
للكافة الموت ماشية بالخطوات نفسها إلى موتها
هذا ما كانت تفعله هذه المرأة في هذا الوادي
بينما كنت أما أرتاد قاعات الميسر وأمشي على
سبيل الضلال . ولعلها ولدت في هذا الوادي
وستدفن في مقبرته بالقرب من لحد أبي المحبوب .
فتذهب من الدنيا دون أن يعرفها الناس وهي التي
يسألك الأطفال وهم يذكرونها : — أفسا تعرف
بريجيت الوردية ؟

ليصعب على بيان ما كنت أشعر به ، وقد
وقفت في زاوية لا أبدى حراكا ولا أتنفس إلا
مرتجفاً ، ولاح لي أنني إذا تقدمت لمساعدة هذه
المرأة فأوفر عليها خطوة من خطواتها ، أرتكب
خرقا وأمس بيدي الدنسة آنية مقدسة
ودامت العاصفة ساعتين حتى سكنت ، فأفاقت
الليلة وجلست على فراشها وهي تقول إنها تشعر
بالراحة ، فقد أفرج عنها بعد أن تناوت الدواء ؛
فترأكد الأطفال إلى أنهم ينظرون إليها ، وقد
تمازج في عيونهم الفرح والاضطراب وأمسكوا
برداء مدام بيارسون

وقال الرجل وهو لا يتحزح من مكانه :
كنت أتوقع هذا لأننا عهدنا إلى الكاهن بأن
يصلي ، وقد كلفنا ذلك كثيراً من المال

وعندما سمعت هذه الكلمات الدالة على الخشونة
والحق ، التفت إلى مدام بيارسون فرأيت من تعب
جفوتها ومن التواء قامتها وامتقاع لونها أن التعب
والسهر ذهبا بكل قواها . وسمعت الليلة تجاوب

زوجها قائلة : جزاك الله خيراً يا زوجي المسكين
ونفضت من مكاني وقد نار تأري الحساسة
هؤلاء الناس الذين يعبرون عن امتنانهم للملاك
بتوجيه الثناء إلى بخل الكاهن . وكنت على وشك
تقريهم على عقهم ومعاملتهم بما يستحقون ،
ولكنني رأيت مدام بيارسون ترفع بذراعيها أحد
الأطفال لتقدمه إلى أمه قائلة له : قبّل أمك فقد
زال عنها الخطر

وجئت إذ سمعت هذه الكلمات وتفرست في
وجه هذه المرأة فرأيت عليه أوضح اغتباط تم عنه
روح محسنة كريمة ، وكانت آثار التعب قد زالت
عن ملامحها فطفح وجهها بالبشر ورفعت شكرها
لله هي أيضاً . إن كل ما كانت تطمح إليه هذه
المرضة هو أن تتكلم المدفنة ، أما وهي تتكلم
فلتقل ما تشاء ...

وبعد برهة طلبت مدام بيارسون من الأولاد
أن ينهضوا خدام المزرعة من رقاده ليوصالها إلى بيتها
فتقدمت أطاب إليها أن أسير معها حارساً ما دمت
زاهياً في الطريق نفسها ، وأعلنت لها أنني أعد
قبولها شرفاً لي ، فسألتني : أفأت أوكثفت ؟
فأجبتها : أما هو ، وسألتها ما إذا كانت تذكر
والدي ، واستغربت ابتسامها عندما أوردت هذا
السؤال . ولكنها أخذت بساعدي وخرجنا بسرور
إلى الطريق

الفصل الرابع

وكنا نقطع الطريق صامتين ، وسكنت العاصفة
فارتعشت الأشجار تنفض عن أغصانها قطرات
الأمطار ، وكان لم يزل على الأفق البعيد ومضان

لبقايا البروق وهبت من الأعشاب الرطبية عبقات
نشرها الهواء وقد دبت الحرارة فيه . وانقشعت
السحب عن وجه المساء فغمر القمر بأنواره
قمم الجبال

وذهب فكري يتلمس من الصدف أسرارها
وقد عجبت لها تجمع في ساعات بيني وبين امرأة
ما كنت لأظن أنها موجودة عند ما أشرقت
الشمس ، وهأنذا أصحبها في طريقها المقفر في المراء
تحت جناح الليل

لقد قبات هذه المرأة أن تراقبني لوثوقها من
شرف محندي فهي الآن تستند إلى ذراعي وتسير
مى مستسلمة مطمئنة

وكنت أرى في هذه الثقة كثيرًا من الجراءة
أو كثيرًا من السذاجة ، وشعرت أن رفاقتي تجمع
بين هذه وتلك لأنها بهذه القوة المزدوجة دفعت
بقلبي إلى عاطفة الطهر والافتخار

وبدأ حديثنا يدور على المريضة التي تركنا في
السكوخ ، ثم تحول إلى مشاهد الطريق وما خطر
لأحدنا أن يوجه إلى الآخر ما يوجهه المتعارفان
حديثًا . وتكلمت مدام بيارسون عن أبي باللهجة
نفسها التي ذكرته بها المرة الأولى أى باللهجة فيها
شئ من السرور الرصين ، فبدأت أفهم كلما توغلت
في الحديث معها سبب تكلمها بهذه اللهجة لا عن
الموت فحسب بل أيضاً عن الحياة وما فيها من
حوادث وآلام ، فأدركت أن ليس في الأرض
من ألم تراه مبعثاً للشكوى من الله ، لذلك كان
ابتسامها عبادة وتسليماً لارادته

وحدثتها عن حياة العزلة التي اختبرتها فقالت
إن عمته كانت تجتمع بوالدي أكثر مما كان

يتسنى لها أن تجتمع به هي ، لأن عمته كانت تلعب
وباء بالورق في السهرات ، وأخيراً دعتنى إلى زيارتها
وعند ما وصلنا إلى منتصف الطريق أحست
بالاعياء فجلست على مقعد كانت وقته الأغصان
الفضة بلل الأمطار ، فوقفت أمامها أنظر إلى أشعة
القمر الباهتة تنير جبينها ، وبمسد دقائق نهضت
وإذ رأني ذاهلاً قالت : فيماذا تفكر ؟ أفأنا لينا
أن نستأنف السير ؟

— كنت أفكر في الغاية التي خلقك الله لها
فأدركت أنه أوجدك رحمة للعالمين

— إنها الكلمة لا أحملها منك إلا على محمل
الاطراء

— ولماذا ؟

— لأنه بلوح لى أنك لم تزل في ريمان العمر

— أفليس في العالم من بلغوا من العمر أكثر
ما تدل سجاؤهم عليه ؟

— لقد يكون ذلك كما أنه يمكن للانسان أن
يأتى بأقوال أنضج منه

— أفأنا متقدمين بالاختبار ؟

— إن ما أعرفه عنه هو أن أكثر الناس

يطلقون اسمه على أحزانهم أو على أعمالهم الجنونية
فما هو مبالغ المعرفة التي يتوصل إليها من كان
في سنك ؟

— رب رجل في العشرين رأى من الدهر

ما لم تراه امرأة في الثلاثين ، فإن ما يتمتع به الرجال
من الحرية يصل بهم إلى صميم الحياة بأمرع مما
تصل النساء . فالرجال يتهافتون على ما يجتذبهم دون
حائل فيختبرون كل الأمور . فإذا ما لاح لهم أمل
مشوا إليه ، حتى إذا بلغوه ارتدوا عنه تاركين الأمل

من ثياب يدل على التجديد في الزى والحياة ؛ أما هي فكانت تتمتع بكل ذلك وكأنها منسلخة عما حولها . وقد استرعى انتباهي ما في ذوقها من التناسق الذي يندب عن كل مستغرب ، فلا تأنس إلا للجدة والحسن ؛ وكان حديثها يدل على علم مستكمل ، فما كانت تتناول موضوعا دون الاجادة فيه ، فكنت أحس بأن وراء هذه السذاجة غورا مليئا بالكنوز وأن ذكاء طليقا وافرا يرف فوق قلبها الهادي في عزلتها ، فكان هذا الذكاء طير من أطيوار السواحل يتعالى إلى السحاب صررفا فوق طحلب الصخور حيث ابتنى عشه .

ودار حديثنا حول الأدب والموسيقى وكدنا نتناول السياسة ، وكانت قد ذهبت في الشتاء إلى باريس وما كانت تتصل بالمجتمع إلا في فترات متقطعة ، غير أن القليل الذي كانت تشاهده كان يكفيها لفتح مجال وسيع أمام تفكيرها .

وكان خير ما يجملها سرور هادي لا يصل إلى المرح الذي يثب وثبا ، فكانها خلقت زهرة عيبرها السرور .

وبعجز بياني عن وصف ما كانت تفعل عيناها السوداء وانها تلتصمان على صفحة وجهها الشاحب . ومما كان يزيد في بهائها سكنات وحركات تأتي بها عفوا فتدل على أنها عركت الدهر وبلت الحياة وما أدري أية قوة كانت تمن أن السرور المسكل لجبين هذه المرأة لم يأتها من هذا العالم ، بل أنزل عليها من السماء وأنها ستعود بهذا السرور كاملا إلى الله بالرغم عن الناس . فكانت هذه المرأة تتجلى لي في بعض اللحظات كحاملة قبس تنقسم هبوب الريح لتقي النور المشع في يدها

مضيقا على الطريق ، وقد خدعتهم السعادة بما منهم من مواعيد

وكنت أسير في كلامي على هذا النمط حتى بلغنا أكمة ينحدر الطريق منها إلى الوادي ، وكان الانحدار استهوي رفاقتي فبدأت تقفز برشاقة بخارجيتها وسرنا ركضا وساعدانا مشتبكان والعشب المبطل تحت أرجلنا يزيد في انزلاقنا ، وهكذا انحدرنا كطيرين أصابهما الدوار حتى بلغنا قاعدة الأكمة وقالت : لقد كنت متعبة فزال تعب الآن ، فهلا عالجت اختبارائك بما أعالج به تعبى لقد سرنا بسرعة فسنناول الطعام بشهية

الفصل الخامس

وذهبت لزيارتها في اليوم التالي فوجدتها جالسة إلى البيانو ، ورأيت العمة الشبيخة قرب النافذة منهمكة في الحياكة ، وكانت الغرفة الصغيرة مليئة بالأزهار وشماع الشمس يغمر العرائش المحيطة بها حيث نصب قفص كبير تتطاير فيه المصافير

وكنت أتوقع أن أرى زاهدة عابدة أو على الأقل امرأة قروية لا علم لها بشيء مما يجري وراء منطقة صاحبيتها ولا تحيد عن عادات محيطها . وقد كنت أنظر إلى من يعيشون منمرايين كأنهم يختفون عن الناس هنا وهناك في المدن بشيء من الخذر كأنني أرى فيهم بئرا آسنة فسد فيها الهواء ؛ فان في كل ما يتلفع بالنسيان على الأرض شيئا من الموت . غير أنني رأيت على مكتب مدام بيارسون جرائد ومجلات حديثة كانت ترصد لها ما يتبقى لديها من الوقت ، وقد كان كل ما حولها من الرياش وما تلبسه

في القرية وهو من خريجي سان سوليبس ومن
أنسباء الكاهن خادم الرعية

وكان هذا الرجل سمينا صاحب اللون وما كنت
حياتي إلا مستقبحا هذا النوع من الصحة العلية ؛
وكان هذا الرجل فضلاً عن هذا التناقض في شخصه
يتكلم بلهجة تدل على الادعاء ، فكان يورد ألفاظه
متوتبة متمهلة ، وكان في مشيته شيء من التصنع المتثاقل
زاد في نفوري منه ؛ أما نظراته فلا يسعى أن
أقول عنها إنها نظرات لأنها ما كانت لتعني شيئاً
ذلك كان حكماً على هذا الرجل من ملاحظه ،
وما كذبت الأيام فراستي فيه ، وأأسفاه ...

جلس هذا الرجل على مقعد وبدأ بالتحدث
عن باريس ، وكان يدعوها بابل المعصر ، فقال إنه
جاء منها وهو يعرف جميع من فيها ، وأنه كان يتردد
على مدام ب وهي ملاك كريم ، فيقوم بالوعظ
والارشاد في قاعاتها الكبرى حيث كان الناس
يأتون زرافات ليصنعوا إلى أقواله وهم ساجدون .
(وما كان الذي يقوله هذا الرجل كذباً ويا للأسف)

وذهب في حديثه فقال إن من عرفه إلى هذا
البيت الكريم إنما كان أحد زملائه ؛ غير أن هذا
الزميل كان قد أغوى فتاة ، فطرد من المدرسة لهذا
الجرم الشنيع

ثم انقلب هذا المحدث بكيال الثناء لمدام بيارسون
لما تتصف به من حب الخير وما تأتبه من أعمال البر
بالاعتماد بالرضى والسهر عليهم بنفسها قائلاً : إنها
لأعمال جلية لن أغفل عن ذكرها في سان سوليبس
فكانه كان يقول إنه لن يغفل ذكر هذه
الأعمال عند أقدام عرش الله

وما أمضيت ساعة في الغرفة الصغيرة حتى
اندفعت أحدث صاحبها عن كل سرأري ذا كرا
حياتي الماضية وما تركت لي من أصحاب وما تحملت
منها من الأحزان ؛ وكنت أتمشى في الغرفة ، فتارة
أتمشى على الأزهار أنشق عبيرها وتارة أرفع رأسي
إلى السماء محدقا بالشمس ، ثم تقدمت إلى مدام
بيارسون أخيراً ورجوتها أن تسمعني إنشادها ،
فما ترددت وبدأت تنشد ، فذهبت إلى النافذة
لأنطلع إلى الطيور بينما أنتصت إلى الانشاد .
وخطرت على بالي كلمة لموبتان وهي : (لا أحب
الحزن ولا أحترمه بالرغم من إجماع الناس على تعجيبه ،
فما الحزن إلا كلمة حمقاء جعلها الناس حلية
للحكمة والفضيلة)

وسمعت صوتي يتمالى بالرغم مني قائلاً : يا للسعادة
ويا للراحة والمسرة والسلوان !

فرفعت العمة رأسها ونظرت إلى نظرة استغراب
وتوقفت مدام بيارسون فجأة عن الانشاد ، فعلا
احمرار الخجل جبيني إذ شمعت بما أتيت من جنون ،
فارتيمت على المقعد صامتاً

ثم نزلت وإياها إلى الحديقة ، فرأيت هنالك
الجدى الأبيض رافداً على العشب ؛ ولما رأنا هب
نحوها ومشى ليقبضنا ، وما قطعنا أول ممشي في الحديقة
حتى لاح لنا قرب المدخل شاب طويل القامة
صاحب الوجه ملتف برداء أسود ، فاجتاز الحاجز
دون أن يقرع الجرس وتقدم إلى مدام بيارسون
مساماً ، ولحظت أن غمامة سوداء صرت على ملامح
هذا الرجل عند ما رأيته ، وقد تشاءمت أنا لما رأيته ؛
وكان القادم كاهناً يدعى مركانسون ، كنت شاهديه

فقلت لها : لقد تذرعت باسم والذى لدخول
هذه المملكة فاسمحي لى باسمه أيضاً أن أعود لأومن
بالسعادة وأنا كد أنها لم تدفع بى إلى زاوية النسيان
مدت يدها إلى فمستها دون أن أجسر على
رفعها إلى شفتى ، وأمسى الساء فعدت إلى مسكنى ؛
وعند ما أوصدت بابى واستأقيت على فراشى لاح
البيت الأبيض الصغير أمام عيني ، فسكنت أراى
أخترق القرية متجهاً إلى الحاجز لأقرع بابه .
وهتفت قائلاً : تبارك الله ، يا قلبى ، فانك لم تزل
فتيا وبممكنك أن تحيا وبممكنك أن تحب بعد
فليكسى فارس (يتبع)

واجب !

ما الذى يمنحك من أن توفر لنفسك
القوميسيون ومصاريف المحل و . . . الخ إذا
وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف
من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأساً بتكاليفها
فقط

مهرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق
ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله فى
السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا
إلى حسين حسنين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر
الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل
إليك الطلب فى الحال

مطلوب وكلاء فى الشرق والأقاليم للقلم
ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج ما

و كنت تعبت من سماع هذا الخطاب فاستلقيت
على المشب وبدأت أداعب الجدى الأبيض ، فأنزل
مركانسون نظره المنطقى على قائلاً : لقد كان
فارينو الشهير يحب أن ينطرح على المشب
ويداعب الحيوانات

فقلت : هذا نوع من الهوس الطاهر يا حضرة
القس ؛ ولو أن هوس الناس كله من هذا النوع
لكانت الأمور تجري مجراها ولا تحتاج لتدخل
أحد فيها

وما أعجبه جوابى فقطب جبينه وغير الحديث
قائلاً إنه موفد من قبل كاهن القرية ليحدث مدام
بيارسون عن رجل فقير لا يملك ما يقتات به ، وبعد
أن دل على مسكن الرجل قال إنه يؤمل أن تهتم
السيدة الفاضلة بأمره

و كنت أتوقع أن تشكلم هى ليزيل صوتها أثر
صوت الكاهن الأبح من أذنى ، فما أبدت جواباً
بل انحنت مسلمة ، فنهض الكاهن وذهب
فى سبيله

وما نوارى حتى عاودنا الجبور ، فدعتنى للذهاب
معهما إلى حجرة النبات فى طرف الحديقة ، وكانت
هذه السيدة تعتنى بأزهارها عنايتها بالأطيار
والفلاحين ، لأنها كانت تود أن ترى كل شىء
حولها متمماً بالصحة فلا يحرم أحد أو شىء قطرة
الماء وشماع الشمس ، فما كانت تشعر بالسعادة
إلا إذا بلغت ما يريده الملاك الكامن فيها

و كانت حجرة أزهارها على غاية من الجمال ،
وبعد أن مررنا بها قالت : هذه هى مملكتى الصغيرة
وقد رأيت كل ما فيها لأن هنا آخر حدودها

أوديسيوس يروي قصته

أ — إبولوس وجعبة الرياح الأربع
ب — في جزيرة الجبابرة
ج — نغرام سيرس



الأولاد الذين

لهيروس

بقتل الأستاذ دريني خشبة

مقدمة الفصل السابع

« شرع أوديسيوس يروي قصته للملك ألكينوس ، فذكر كيف أقلت سفاته بعد إذ وضعت حرب طروادة أوزارها ، وكيف أرسلت في مياه إزهاروس ، وذكر ما كان من غزوته لهذه المدينة ونهبه لها ، وكيف كر أهلها عليهم فأوقعوا بهم ... وما كان من إبحاره ، ورسوه عند جزيرة اللوتوفاجي ، أسكلة اللوتس ، وما كان من مشاركة بعض رجاله أهل الجزيرة في أكل هذا اللوتس العجيب ونسيانهم بذلك أوطانهم ، وتفضيلهم الإقامة بين اللوتوفاجي ، حتى اضطر أن يذهب إليهم بنفسه ، ويرغمهم على العود إلى الأسطول مكبلين في الأسفاد ... ثم روى ما حدث له بعد هذا في أرض المردة — وكيف حبسهم السيكلوب في كهفه ، وكيف كان يقتدى ويتعشى بأعين اثنين من رجاله ، وما دبروا له من قلع عينه بجذع الزيتون المحمى في النار ، وما كان من هربهم معلقين بيطون الكباش مفلتين من أذى السيكلوب ، وما كان من إغاية أوديسيوس له وهو واقف يتشقى منه في سفينته في عرض البحر ... وهو هنا يتم قصته ... »

« وبلغنا جزيرة الأبولين حيث يحكم الملك إبولوس بن هيرتاس ، حبيب الآلهة . وهي جزيرة تلوح طافية فوق العباب بسورها النحاسي الهائل ، وأواذها التي يتكسر فوقها الوج ، ولقد زوج الملك أبناء الستة من بناته الست ، وهو يقيم معهم في قصره النيف ، في فير وارف من حب الملكة ، في بلهنية ورغد ، وعيش واسع تحفّرج ، ونعمى طائلة ، ولذائذ شتى ... يقضون وقتهم في لهو برى ومرح ، وبأوون إذا أجنهم الليل إلى سرر موضوعة ، وزرابى مبثوثة ... وأرائك من حرير ولقد لقينا الملك بالبشر والايئاس ، وأقمنا في كهفه شهراً كاملاً ، ناعمين طاعمين ؛ ثم سألتني فقصصت عليه قصة (اليوم) وكيف سقطت في أيدينا ، وما كان من إبحار أسطول الآخيين بعد ذلك ، وما تم من رحلتنا في ذاك العباب ، عاشين ، ضارين على غير هدى ... ثم إنى ضرعت إليه أن يبيدني في خفارته إلى بلادي ، فأجاب سُؤلي ، وأمدني بكل ما يبسر رحلتى ، ثم تفضل فمشى معي إلى البحر ، حيث قدم إلى جمعة مصنوعة من جلد عجل كبير جسد ، خُيّل إلى أنه ذبح في سن التاسعة ، وهي جمعة من صنع جوف سيد الأوب ، حبس فيها عظيم الآلهة رياح العالم أجمع ، وأحكم رباطها بسلك فضي متين ، حتى لا يفلت منها نفس واحد إلا بأذن ... وانطلق الملك بعد أن أمر زفيروس — رب النسيم الحلو — فلا شرعنا ،

وهب رخاء بين أيدينا ... والأسفاه ! لقد كانت
هباته اللطيفة الرخية عبثاً ، وضاعت في غفلة
رجالي ، سدى ... ! . فلقد جرت بنا الفلك آمنة
مطمئنة طوال تسعة أيام بلياليها ، ثم بدت لنا
شيطان إثنا كما تخفقت قلوبنا فرحاً ، واستطمت أنا
نفسى أن ألمح مواطني الأعزاء يوقدون النار في
شعاف الجبال ... بيد أنى كنت منهموكا موهوناً
من كثرة العمل ووعثاء السفر ، وطول السهر
والرافة ، فداعت عيني سينة من السكرى ،
لأنى كنت أسهر على القيادة بنفسى طيلة الرحلة ،
ولم أكن آمن أحداً من رجالي على الاضطلاع بها
خشية الونى ، ومخافة التأخير ... وبينما كنت
نائماً ، لعب الوسواس في صدور رجالي ، زاعمين
أنى أحل أخطاراً من الذهب والفضة أسبغها على
إبولوس الملك ... قال قائمهم : « يا للآلهة ! ! أبدأ
ما وطئت قدما أودسيوس بلاد قوم حتى تهالكوا
عليه فرحين ممجبين مكبرين ! وهو اليوم يعود
من طروادة ومعه من طرّفها وسليها الجم
الكبير أما نحن فوا أسفاه علينا ! لقد
شاركناه تلك الرحلة المشؤمة ، وهانحن نرضى
من الغنيمة بالأياب ، ونمود منها أصفار الأيدي ،
لا أماننا ولا وراءنا ! وها هو أيضاً قد فاز دوننا
برفد ملك الرياح ، إبولوس العظيم ؛ هلموا يارفاق !
البدار إلى هذه الجمبة ننظر ما احتوت من أصفر
وأبيض ، وأعطيات وهبات ... ولهى ! » ، وأقبل
بمضهم على بعض ، وامتدت أيديهم إلى الجمبة
فخلوا رباطها ... وا حـسرتاه ! لقد انطلقت الرياح
الحبيسة ، وزجرت العواصف الهوج من كل
صوب ، وطفقت تكسحنا في شدة وعنف ...
بمبدأ ... من إثنا كما ! ! ولقد قفزت من غفوتى

خائفاً مذعوراً ... حتى أخشيل لي أن طوفاناً قد
غمرنا ! . . . وظللت برهة في ذهول ودهش ،
وطفت الأحزان على قلبي ، ورائت الهموم على
نفسى ، وفث اليأس في عضدى ... ولكننى لم
أجد من المبر بداً ؛ فتحملت الكارثة في هدوء
وصمت ، وعصبت رأسى بثوب شف ، وانبطحت
في قمرنى ... وراحت العواصف تدفع الأسطول
في غير هودة ، حتى بلغ شيطان الأيوليين مرة
أخرى ... وهناك بكى صبحى ... ولات حين
بكاء !! وهبطنا الشاطئ ، وكان ههنا أن ترأشف
من ماء إيوليا العذب رشقات ، ثم جلسنا نعد
أكلة عجبلى ونلتهمها ؛ وتوجهت أنا وصديق
إلى قصر الملك ثانية ... وقد كان يجاس لوليمة
كبيرة هو والملكة الحسناء المصون ، وأبنؤه الغر
الميامين ... ولشد ما بدهه أن يرانا بعد طول النأى
فحدجنا وقال : « وبك أودسيوس فيم عدت
أدراجك ؟ وأى سلطان مشئوم لوى عنانك بعد
إذ أرسلناك مزوداً بخير زاد لتصل إلى بلادك ،
وتلقى آلك ؟ أو أى آل آخرين ؟ ! » ، وكان
فؤادى ينخلع حين قلت أجيبه : « تبارك الملك !
لقد خائنى رجلى اللؤماء ، وخائنى معهم طائف من
السكرى ! فإذا شاء الملك فليجبر ما انصدع منا ،
وهو ما يزال صاحب الحول والطول ! » ...
وهكذا شامت المقادير أن أتف ضارعاً إلى هذا الملك
مرة أخرى ... وقد تلبّث أبنؤه صامتين
لا ينبسون ... وا كفهر وجهه الملك وقال :
« أيها الرجل انطلق ... إغرب عن جزيرتنا
هذه يا أنمس الناس ! إنطلق فوالله إنى لأستغفر
الآلهة أن أكرمت مثوى رجل مثلك عدو
نفسه ، ممقوت من الأرباب ، منضوب عليه من

مدخل المدينة فتاة عذراء تملأ جرتها من عين ماء هنالك ؛ فما كادوا يسألونها حتى علموا أنها ابنة الملك أنتيباس ملك هذه البلدة . . . ومشت بين أيديهم حتى كانوا في قصر الملك ، وهناك لقيتهم امرأة هولة عظيمة الجسم ، كأنها هضبة ، فلم يحسروا أن يمدوا إليها أبصارهم مما غشيتهم من النزع وكانت هذه هي الملكة ، التي صاحت عند ما لحق رجالي ، وزوجها ، فأقبل يهتز وتزلزل الأرض من تحته ، وما كاد يلح هؤلاء القرباء حتى أمسك بواحد منهم وخطب به الأرض خطمه . . . كأنما أقبل ليخوض معمة . . . ؛ وانطلق الآخرون لا بلويان على شيء ؛ حتى بلغا سفائننا . . . ثم زجر الملك بصوت قاصف كل عدي يدعو إليه رعاياه ، فأقبلوا إليه من كل حذب ، صرعة جبارين كالأغوال ، لا عدد لهم ، ولا تقع العين على أشبع منهم . . . ثم تهاووا إلى الشاطئ حيث أرسى سفننا ، فجلسوا يقذفونها بحجارة من سجيل ، جمعت رجائنا كمصف ماء كول وجمعت مراكبنا حطاماً كان يهوى إلى الأعماق ؛ بينما هؤلاء الجبابرة ينشلون قتلاً ما يحراجهم ليهودوا بها إلى بيوتهم فرائس سائغة يملأون بها بطونهم . . . وهكذا استمرت هذه الذبحة الدامية . . . وكنت واقفاً في مركبي ، وجرازي إلى جانبي ، فأمرعت إلى حبل المرساة فقطعتها به ، وبادر رجالي إلى مجاذيفهم فأعملوا فيها أيديهم . . . وبذلك نجونا من هذا الروع برغم الحجارة الهائلة التي كانت تتطاير فوق رؤوسنا وتهاوي عن شئ ثلثنا وعن أيماننا ، فتشيع في فرائصنا خطر الموت . . . وظللنا نكافح الموج ونصارعه ، فرحين بنجاتنا ؛ ومع ذلك ، فقد كانت تمتاج قلوبنا همًا وأمى على إخواننا . . . ثم رسونا آخر الأمر عند جزيرة إيايا ،

السما : « . وهكذا طردني الملك شر طردة ، فضيت على وجهي ، ولقيت أصحابي ، وأبحرنا نذرع اليم المصطخب بمجاذيفنا ، ونسكب في هذه الأعماق المضطربة قواماً ، لا أمل لنا في الوصول إلى بلادنا ، ولا رجاء في الخلاص من هذه البؤوس ؛ ووصلنا مدينة إيستريجونيا بعد نصب ستة أيام بلياليها . . . تلك المدينة الوحشة التي بناها منالاموس العظيم . . . والتي (تنزو الخنترات صروجها نهارجاً ، فيخرج الرعاة بقطعان الغنم ذات الفراء السمكة التي تحمي الحيوانات من ذبابة الماشية وتدفع عنها غائتها ، فاذا جن الليل عادوا بأغنامهم إلى حظائرهم ، وذهبوا بالغنم لترعى في هدأة الليل ، ولتشكون بآمن من غوائل الذباب الذي يكون قد غلبه النعاس)^(١) . . . وصلنا إلى هذه المدينة فألفيناها محصنة بصور عظيم من الحجر الصلب ، ينحدر قليلاً قليلاً إلى الميناء ، بمضيق صغير لا تملو فيه موجة ، لا يتحرك فيه الماء . . . وقد أدخل رجالي سفائنهم في هذا البوغاز ، وآرت أنا أن أظل بسفينتي عند فمه مما يلي البحر ، فألقيت مرصاي ، وثبتها في حجر كبير ، ثم وثبت إلى الشاطئ ، وتسمنت ربوة عالية ، وأخذت أجيل ناظري في الجزيرة . . . ولم أقف لأنس أو حيوان على أثر ، وبدأت الأرض جرداء بافعا ؛ بيد أن دخاناً كثيفاً كان يصاعد من وسطها ؛ فرأيت أن أبعث باثنين من رجالي جمات عليهم ثالثاً رئيساً ، ليعلموا لنا من أنباء الجزيرة ، وليتجسسوا أخبار أهلها . . . وقد قص هؤلاء آثار العربات التي يستعملها السكان في نقل الأخشاب من الغابة إلى مدينتهم ؛ ولقوا عند

(١) كلام هومر هنا غامض شديد الغموض ولذلك انكنا في إجابته على شرح مترجيه

نقط في سبات هادي . . . وذرت أورورا ابنة
الفجر الوردية فهتفت برجالي ، فهبوا ، ثم جالسنا
ساعة نقشاور ، وأنا أقول لهم : « أيها الرفاق !
يا إخوان الشدائد ! هاتن نحن قد احصينا هذه الأرض
ولسنا ندرى أيان نذهب ؟ هل نشرق ، أم نقرب
أم نظل هنا أبد الدهر ؟ ! ولكن هلموا ننظر
لأنفسنا غصصاً مما نحن فيه . . . فاني حينما تسنمت
ذروة هذا الجبل أجليت الطرف في أرجاء هذه الأرض
فعرفت أنها جزيرة تترامى الى مدى البصر ؛ ثم
إني آنست دخاناً يملو في الجو من وسطها ، ينبثق
من مروات طوال فيها ، قرّوا لأنفسكم أنما بكم
الله ! » - وكانما سقط في أيديهم ، وكانما حانت
بهم ذكريات آتية تأس وقومه المسترجمون ؛ وما
أفوا من هول السكاب أكلة اللحم البشري ،
فبكوا ساعة من الزمان ، ثم استرجعوا حيث
لا يجدى السكاب . . . ثم إني قسمتهم فريقين ، جمات
على أحدهما يوريلاخوس ، قرّن الآلهة ، وجمات
نفسى على الفريق الآخر ، وجالسنا نقترع ، من
يذهب لارتباد الجزيرة ، فوضعنا الرقاع في خوذتى ،
ثم كانت الفرعة على يوريلاخوس ، فمضى ، وتحت
إمرته اثنان وعشرون من رفاقنا ، كانوا جميعاً
بذرفون الدمع خوفاً وفرعاً مما وجهوا اليه ، وكنا
نحن نبادلهم دمعاً بدمع وبكاءً ببكاء . . . ووجدوا
قصر سيرس في بطيحة^(١) منخفضة ، فاذا رأوا ؟
قصر منيف مُمرّد تحديق به تماثيل حية من
سباع وذؤبان سحرتها سيرس بمقايرها ذات
القوى الخارقة الخفية . . . ولم تؤذهم تلك الوحوش ،
بل كانت تثب على أرجائها الخلفية في دل وتلطف ،
ثم تبصيص بأذنانها كأنها كلاب السادة العظماء

حيث تقيم سيرس ، ربة الغناء والسحر ، ذات
الشعر الكهرمانى ، أخت إيتيس الحكيم من أبيها
الشمس ، وأميها برس ابنة أوشيانوس^(٢) . وكانما
مشت عناية السماء بين أيدينا فرسونا في جون هادي
ساكن في غير جلبة ولا تجبيج ، ثم هبطنا الى
الساحل فتلبثنا فيه يومين كاملين نستجم ونستروح
مما بنا من أين وجهد ، وكاننا فرائس لنا في أضالعنا من
شجورهم وشجن . ثم إلى تسلمت برحى وسيفي
وحنثت خطاى في أسناد الجبل حتى كنت في ذراء
الشاهقة ، ووقفت ثمة أنظر وأمحس ، فلمحت في
البعد دخاناً يصعد بين الدوح والزهى من قصر
سيرس . وبدالى أن أتوجه إليه من فوري عسى
أن أجد عنده خيراً . وانعد ترددت بعد ذلك كثيراً
وكدت أعود أدراجى الى السفينة لأرسل نفرا من
رجالى يكشفون لى الطريق الى القصر ؛ وما كدت
أخطو خطوات حتى ساق إلى أحد الآلهة بظبي
غمر برشرد من المرج المعشب الحلو يستقي مما ألح به من
ظلم فأرسلت إليه برحى فقصم ظهره ، وسقط يتخبط
في دمه ؛ وقطعت شيت من عساليج الصفصاف
وجدلت منها حبالا ، وأوثقت الغزال من أياطله
واحتملته على ظهري ، ومضيت قدماً الى رفاق
متوكلين في كل خطوة على رحى إذ لم تمد شيخوختى
تستقيم لمثل هذا الحمل الكبير ! وهتفت برجالي في
مروح وظرف : « هلموا يا رفاق فان تقضى قبل أن
تجبن آجالنا ! ! هلموا الى ظبي فنيق وخمر عتيق ،
واطرحوا ما بكم من هم وضيق . . . » وأقبلوا فرحين
وشتموا عن سواعدهم وهم يستهولون من جذل هذا
الغنص الغريص ، وظلمنا يومنا هذا نطعم ونشرب
حتى إذا أرخى الليل سدوله انكفأنا على الشاطئ^(١)
(١) لم يتعرض شراح هومر لهذه الفقرة ولذا أثبتناها
كما هي

حينما تتملقهم في وليمة من أجل لقيات ... وصمقوا أول الأمر؛ ثم انطلقوا حتى كانوا تلقاء باب الربة صاحبة السكان ... وتسمعوا ، فاذا سيرس تنغني بصوتها المعجب المطرب وهي تعمل على نولها ، مشغولة بنسبيج سابري عبقرى عجيب ، ليس بقدر على مثله إلا الآلهة . وكان في رجال الفريق أمير عظيم هو عندي أربطهم جاشاً فقال : « أسمعون أيها الأصدقاء إلى هذا الغناء الخلو ترده جنبات القصر ؟ إنه لا شك غناء ربة الدار التي تعمل على نولها ، ولست أدري أربة خالدة هي ، أم من بنات حواء .. وعلى كل هلموا نهتف بها . » وتنادوا ، وأقبلت سيرس فهشت لهم ويشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا .. فدخلوا ، وآسفاه ، إلا يوريلوخوس فقد خشي أن تكون ثمة مكيدة أو أحبولة . ولقد قادتهم إلى بهو كبير صفت فيه عروش نخمة من ذهب ، ماكدوا يستقرون عليها حتى أقبل الساق بنحمر وعسل ثم جرى بجن وطعام آخر ، مخلوط بمعاقير سحرية تذهب وعي آكلها ، وتلبيهم ماسلف من أمورهم ، بل تسلبهم ذكريات أوطانهم ثم ضربت كلاً بمصاعم السحرية بعد إذ أكلوا ورووا ، واستاقهم إلى حظائرهم حيث مسخوا فكانوا خنازير ، وإن أبقى السحر على ألبابهم . أما طعامهم بعد هذا ، فقد كانوا يتناولونه من يدها مباشرة ، فكانت تطعمهم جوز البلوط والشاهبلوط والكريز^(١) الكلابي . وما إلى هذا وذلك من أكل الخنازير الخسيسة السائبة

وأقبل يوريلوخوس ينتفض من الدهر ، وينمقد لسانه فسا بكاد بين ، ثم هدأ روعه قليلاً (١) الكريز : وجمه الكراز بالضم الأنط ، والمراد هنا فاكهة الكريز

فطفق بصمقنا بأبناء ما رأى : « أوديسيوس ياذا المجد ! لقد ذهبنا نتجسس كما أمرتنا ، ونزود هذا الوادى الأشب ، فوجدنا قصرأ مشيداً فوق أكمة عالية ، وسط بطيخة منخفضة ، ذاقبة سامقة جلست تحتها امرأة أو ربة - لا أدري - وهي لانفتاً تعمل على منسج بخفة وصنعة ، وترسل الحاناً حنوناً حلوة ؛ وما كادوا يهتفون بها حتى نهضت قلقىهم بالبشر وفحت لهم بابها على معراعيه فدخلوا جميعاً - حاشى - فقد أوجست خيفة ، ووقر في قباي أن ثمة شركانوشك أن تردى فيه ؛ وقد راقت رفاقي إذ هم جلوس لحظة غير قصيرة ، ثم هالني ألا أراهم فجأة !! » وما كاد ينتهي حتى قفزت إلى سبيق فتسلحت به وأخذت قوسى وسهامى ، وأمرته أن ينطلق بين يدي إلى حيث ذهبوا من قبل ولكنه ركم أمانى وتعلق بساقى وجعل يرجو ويلحف في الرجاء ألا تذهب .. « فانك لن تفشل في إعادة رفاقنا فقط ، بل قد تفشل في أن تنجو بنفسك . فانطلق بمن بقى منا ، يا حبذا لو استطعنا الفرار ! » ولكنى أجبته أن له أن يبقى هوياً كل ويشرب في السفينة ، ويكون بنجوة مما فزع منه أما أنا ، فلم أر ضرورة لبقائى

وانطلقت لا ألقى على ثنى ، ولكنى قبل أن أبلغ البطيخة التي بها القصر ، لقينى هرمز الحبيب إله المصا السحرية . وكانت تخايل المصا وبدأوات الشباب تتدفق في بردتيه ، وحمرة الورد تآهب في خدي ، لقينى فصاخن متلفاً وقال : « أيها التمس أياك تضطرب وحدك في هذه الأرض وقد حبست سيرس من أرسلت من رجالك في حظائرهم بعد إذ سحرتهم إلى خنازير شقية ؟ هل أقبلت لتنجيهم ؟ أم جئت لتحتجزك معهم إلى الأبد ؟ ولكن اصغ إلى ؛ إنى

عليه ، وذهبت هي فزجت لي كأساً من الخمر بشيء
من عقارها ، وقدمته لي فاحتسيتها ، بيد أنني لم أنفیر
ولم أنحول عن صورتي ، فضربتني بمصاها السحرية
وهي تقول : « هلم إلى الخطيرة حث تفر مع رفاقك »
ولم تكذب تصمت حتى وثبت من مقمدي وامتشقت
سيفي ، وهجمت عليهما ، وفي عيني جحيمان من نار
الغضب ، فروعت ربة السحر ، وزلزلت زلزالاً
عظيماً ، وجرت نحوي ، وركعت عند قدمي ،
وتعلقت بساقي ، وأخذت تضرم إلى وتقول في
بيان رائع وكلمات باكية : « عمرك الله من أنت
ومن أين قدمت وما ديارك ؟ تكلم ! أنت يا من
لم تحرك جرعتي الهائلة التي لم يذوقها أحد وظل
في صورته لحظة واحدة ! ولكنك تحمل قلباً
لا تجوز عليه نفثات السحر ... ولكن هلم ...
تعال ... إلى إلى أعرفك أحسن المعرفة ... إنما
أنت أودي-يوس الصانع ذو الذِّكر ، ولقد وصات
إلي هنا من اليوم بدورك فلم يشأ همرض ذو العصا
الذهبية أن يخبرني بمجيتك ! ولكن اغمد سيفك ،
وهلم نتم بالعتاق فوق فراشي الوثير كزوجين ،
وليفرخ روعك وليهدأ بالك .. اطمئن يا أودي-يوس
هلم ! » وصمت لحظة ثم انطلقت أجيبها :
« سيرس ! كيف تتصورين أن يفرخ روعي ويهدأ
بالي وقد حبست في رحابك رفاقي وشركاء رحاقي
بعد إذ سحرتهم إلى خنازير أيتها الربة ؟ ثم تخشين
إفلاقي فتخادعينني وتبهرجين علي بطلاسم الحب ،
داعية إياي إلى فراشك لتشوين صفاء فضيلتي برجس
رذيلتك ... لا ... لا ، إني لن أقاسمك هذا الفراش
حتى تقاسميني أغاظ الأقسام ألا تلحق بي أذى ،
وألا تحاولي الاضرار بي » وراحت تحاف وتؤكد
الحلف ، وتقسم وتغاظ في القسم ، ثم إني انطرحت

سأحبط ما فعلت ، وسأحميك وأحفظك . خذ
هذا العقار^(١) ولا يهملك بعد أن تدخل قصر سيرس
فانه ينقذك من كل خطر ... وهلم أعلمك ما عندها
من السحر ، إنها ستعزج لك كأساً من الشراب
عما عندها من رجس ، وستضع لك منه في طعام
تقدمه لك فكل وارو ولا تبال ، فهذه البقلة
المعجبية التي أعطيتك ستحبط كل ما يحيك لك فلا
تقدر على مسخرك كمن مسخت من رفاقك ...
فاذا عالجتك بمصاها السحرية فاهجم عليهما بسيفك
فغير هباب ، وأرسل إليهما شرر الغضب من عينيك
فانها حينذاك تنقاد لك ، وتعودك إلى فراشها ،
وتحتال عليك بصنعة الحب وتلطفات الهوى ،
فاياك أن تنصاع لها حتى تعطيك موثقها أن تبطل
ما أنزلت برفاقك من سحر وأن تترفق بك فلا
تمسك بأذى ، واحذر يا صاح أن تدنس فضل خيرك
بما ركب في طبعها من شر . » وانحني رسول
الآلهة فالتقط عشباً من الأرض ثم وضعها في يدي
وأخذ يكشف لي أسرارها ويقفني على قواها الخارقة .
وذكر لي أن اسمها (مولي) ، وبه يدعوها في السماء
وأن الآلهة وحدهم يعرفون كيف يشفون بها رُقي
السحر ... وكانت جذورها سوداً حالكة السواد
أما زهرتها فكانت بيضاء فاصمة البياض كاللبن .
وودعني همرض ، ثم رف ورف ، وعرج في السماء .
وانطلقت أنا أخبط في ظلمات من هواجسي حتى
كنت لدى باب ربة السحر التي وجدتها تعمل
كما ذكر لي صاحبي على نولها ... وصحت صبيحة
عالية ، فأقبلت تنهادي نحوي وفتحت مصاريع
أبوابها ، ودعتني ، فدلقت وراءها ، حتى كنا عند
عرش عظيم ممرد فضي ، ذي درج ، فاستويت

في سريرها الفخم الديباجي . وأقبلت أربع من
عمرائس البحر ، خطرن من اليم وأقبلن من
العيون والحر ج المجاور لينهضن بخدمتنا ؛ أما
الأولى فقد أصاحت من سريرنا وطرحت عليه
مطارف الخبز ؛ وأما الثانية فقد صفت الموائد ورتبت
السكرامى ، وجاءت الثالثة بزق عظيم من خمر طيبة
ملأت بها الكؤوس الذهبية المنضدة فوق الموائد
— أما الرابعة فقد أعدت لى حماماً ساخناً وضمتنى
بأحسن الروائح والطبوب ، حتى انتعش جسمى
الخائر ، وتأرجت روحى الفاترة ... ثم ألبستنى
ثوبين غاليين من أندر الديباج ، ومشت بين يدى
إلى عرش عظيم مزدهن بأحسن التصاوير ، ومطعم
بالذهب والفضة ، فاستويت عليه ، واضعاً قدمى على
درج من لباد ناعم وأقبلت بعد ذلك عروس
أخرى فصبت الماء على يدى من إبريق من ذهب ،
في طست من فضة ، وجاءت بمائدة حافلة بأشهى
الآ كمال فوضعتها قدامى ، اكنتى ما مددت إلى
شئ من ذلك يدى ، لما كان يساورنى من الهم ،
وما يشغل بالى من الانتقام ؛ فلما لحظت ذلك سيرس
أقبلت تيمس ، وأخذت تلاتفنى وتقول : « مالك
تجاس ساكناً هكذا يا أوديسيوس كالذى غشى عليه
ما تسكاد تمتد يدك إلى شئ ، كأن ألف وسواس
يخامرك ؟ أما تزال تخشى مكيدة فتخاف أن تتردى
فيها ؟ ألا ما أكبر فؤادك يا صاح ، إطمئن ، فلقد
أعطيتك موثق وحلفت لك بأغلظ اليمين : «
وأجبتها قائلاً : « كيف تمتد يدى إلى طعام أو
شراب ورفاقى ما يزالون فى إسداس سحرك ؟ أبداً أن
أذوق شيئاً حتى تردى بهم إلى صورهم ، ثم ألتقى بهم »
ونهمضت بحمل عصاها السحرية ، وذهبت من فورها
إلى الحظائر حيث أطلقت رفاقى ، وكانوا ما يزالون
فى صور الخنازير ، ثم جاءت بترياق فمسحتهم به ،

فعادوا إلى صورهم البشرية ، وبدوا فى أنضر شباب
وأصباه ، ثم أقبلوا نحوى ياثمون يدى ، ودموع
الفرح تبال ما قيمهم ، وطفقوا يصيحون ويصخبون
وتردد أصداءهم جنبات القصر ، حتى تأثرت سيرس
نفسها مما رأت ، وراحت تقول : « يا ابن ليرتيس
الصناع ، علم إلى مركبك فاشددها فوق البر لتكون
بأمن من غوائل البحر ، ثم خبيء كنوزك وأذخارك
فى غيران هذه الجبال ، وعد إلى فى جميع رفاقك »
وطربت لهذه الفكرة فهروا إلى الشاطئ حيث
لقيت رفاقى الآخرين يندبوننا ويذرفون دموعهم
علينا . وما إن رأونى حتى أهرعوا نحوى يرقصون
ويطربون ويحيون كهذه البهيم التى تمود فى المساء إلى
حنا ترعافتنا لها مزارها بالثغاء والرقاء والضوضاء .
وهكذا تلقانى أولئك الرفاق . ودلت دموع أحزانهم
بمبرات المسرة ، وخيل لهم أنهم رأوا فى وطنهم
النأى المحبوب إيثاكا ، حيث ولدوا وحيث نشأوا
وترعرعوا ... قل قائلهم : « تالله اسكأننا رأينا
فيك أوطاننا يا أوديسيوس ، وتالله لقد طفرت قلوبنا
حين عدت إلينا فعادت أرواحنا إلى أبدانها . حدثنا
أيها العزيز كيف هلك إخواننا فى هذا التيه » .
وقلت لهم : « هلموا أولاً نجر مركبتنا على هذا
السيف الهادى المطمئن والنجى ، أذخارنا وسلاحنا
فى غيران هذه الجبال ، ولننطلق جميعاً إلى سيرس
حيث ترون جميع رفاقكم فى أمينة وعز وطعام
وشراب ، ونعيم مقيم » . وصعدوا بما أمرتهم
إلا يوريلوخوس ، فقد سمر مكانه ، وكأنه لم يحفل
بما أخبرت به ، ثم حرك شفتيه فقال : « ويح
لنا نحن الأشقياء البائسين ! فيم ذهابنا نحن الآخرين
إلى قصر سيرس ، وقد تمسخنا جميعاً إلى سباع
أو ذؤبان أو خنازير ، ونظل إلى الأبد نحرس عربتها
مرغمين ؟ لقد ذهب كثيرون منا ضحية هوس

في أرغد عيش وأحسن حال ، متقلبين في أرفه
نعم ؛ ثم استدار الزمان ، وهتف بنا قانون الأزل ،
فدعاني رجالي إلى جلسة خارج القصر فقالوا لي :
« تذكر يا مولانا وطننا الأول ، فأننا نحن إليه ،
ونتمنى لو ساقطنا المقادير إلى شطآنه » ، وكأنما
نهبوا مني غداً ، فتبادنا يومنا هذا على مائدة ربة
السحر في باهنية وعيش مخفرج ونخر ، وأقبل
الليل فأدوى كل إلى فراشه ، وأويت أنا إلى سيرس
فدأبنا ولا طفتها ، ثم قلت لها في رجاء وظرف :
« سيرس ياربة ! حبذا لو وفيت بمهدك فأرسلتنا
فوق هذا البحر رحمة بنا ، لنقضى حاجات الوطن ،
وانتقطع شكاوى صحابي التي مزقت نياط قلمي » .
وقالت سيرس : « أوديسيوس العزيز ، المعروف
باصالة الرأي ورجاحة الفكر ، إني لن أقرك على
البقاء هنا ، لا أنت ، ولا أحداً من رفاقك ،
ولكنك قبل أن تفكر في شد رحالك إلى بلادك
ينبغي أن تذهب في رحلة شاقة بميدة المدى ...
إلى هيدز ^(١) ... دار بولوتو ^(٢) وبرسفونيه ...
حيث تلقى النبي الصديق الصالح تيرزياس ، الذي
احتفظ وحده في عالم الموتى بكل أسرار وقواه الغيبية
الخارقة ، والذي يتولى في رحاب مليكة الفناء
يتنبأ لها وتستوحيه وتستشير فيعرف ^(٣) لك عما
يهمك ويقفك على ما ينطوي لك من صحف
الغيب » وما كادت تنتهي حتى احلوك الدنيا
في عيني وتدفقت الهوم في نفسي ، وأجهشت
وأجهشت ، ثم استخرطت في بكاء ماويل .
وما كدت أضحو من هذه النبوة حتى قالت لها :
« أني لي ياربة أن أذهب إلى هيدز ؟ ومنذا الذي

أوديسيوس وقلة بصره ، يوم حبسنا للمسيكوب
من أجل أطماع رئيسنا الطيباش ^(١) » وأوشكت
أضرب رأسه بجزازي ، فيختر إلى الأرض برغم
ما يربطني به من آصرة الوطن ووشيجة الغربة ،
لولا أن هب رجالي الآخرون بصرخون ويقولون :
« أوديسيوس الكريم ! لنتركه هنا ليحرس
فالكنا ، أما نحن فراحلون مملك إلى قصر سيرس ،
ولو كان ميسله الفزع الأكبر ! » وتدفقوا من
السفينة على الشاطئ ، وانخرط بوريلوخوس بينهم
منصاعاً لنظراتي المناججة ... أما ما كان من
سيرس حينذاك ، فأنها أدخلت رفاقي إلى حجابها
ثم ضمختهم بأحسن الطيوب ، وخلمت عليهم أنحر
الملابس ؛ ولما وصلنا وجدناهم بطعمون ، فما إن
رأونا حتى هبوا يعانقون حجابهم ويبيكون ، ثم
جاسوا يستمعون إلى قصة ما حل بأخوانهم ، وهم
يصعدون زفرات الحزن ، ترددوا قباب القصر .
ونهضت سيرس فوجهت إلى الخطاب إذ تقول :
« ابن ليرتيس العزيز هون عليك ، وليرفه رجالك
عن أنفسهم ، ولا يستسلموا هكذا لنوبة الحزن ،
ولترقا دموعهم جميعاً ... إني لا أجهل ما تجشموا
من أهوال في ذاك البحر المضطرب ، وما اقوا من
فوادح في كل أرض ، بما كتب لهم في لوح
القضاء ... ولكن ، تمالوا جميعاً ... أنعشوا
نفوسكم الخالدة بكؤوس الراح ، ولتستشعروا بأسكم
الذي كنتم تستشعرونه يوم غادرتم شطآن إيناكا
العزيزة ... إنكم إن لم تتناسوا آلامكم فأنها تفت في
عضدكم وتوهي من قوتكم وتكون أبداً حلفاً لكم
والبكا عليكم ، ولا تعودون تشعرون معها بلذة العيش
وبهجة الحياة ! » ، ووقمت كلماتها في قلوبنا فأقبلنا
على الطعام والدمام ؛ ثم إننا أقمنا عندها عاماً بأكله

(١) الدار الآخرة

(٢) إله الموتى وزوجه

(٣) يتكهن — من العرافة بالسكسر

يحدوني إليها ، ولم يسبقني إليها أحد من أحياء البشر ؟ » فقالت بجيبي : يا سليل ليرتيس العظيم ليفرخ روعك ، ولا يحزنك ألا يكون لك الى هيدز من دليل . بل هلم الى سفينتك فأصلح فلاعها ونشر شراعها وستهب الصبا سحسجاً فتشد هديكم رويدا ، فاذا جزتم هذا البحر المحيط ، وبلغتم الشاطئ^(١) الذي تنمو فوقه أشجار الحور والصفصاف الباسقة ، ثمة باسم پرسفونيه ، فادفخوا إليه بسفينتكم ثم هياؤوا الى مثنوى يلو تو السحيق الذي يبتدى عند الصخرة الهائلة التي تنكسر فوق أواذيتها أمواه أشيرون وستيكس وكوكيتوس فازكوا سفينتكم ثمة ، واحفروا عندها حفرة ذراعاً في ذراع ، ثم صبوا في جهتها الأولى قرباناً من لبن وعسل ، وفي الثانية خمرًا معتقة من أحسن ما تمصرون ، وفي الثالثة ماء قراحا ، فاذا كانت الرابعة فأنثروا الدقيق فوق الجميع ، واصنعوا ذلك باسم الموتي جميعا ، ثم انذروا لهم أن تذبجوا - يوم تعودون الى إيثاكا سالمين - مجلاً جسدا من أحسن قطعانكم : وانذروا كذلك لثيرزياس كبشا سموريا ليس في أغنامكم أسمن منه ولا أقوى جلادا فاذا فرغتم من صلاتكم ونذوركم وأدعيتكم للجميع الموتي من كل الأمم ، فاذبجوا في الحال كبشا ونعجة سمورية ، على أن تكون رأسا الضحيتين تلقاء إربوس وعلى أن تشيجوا بوجوهكم تلقاء الشاطئ فاذا صنعتم كل هذا فسرعان ما ترون أرواح الموتي تقبل نحوكم من كل فج ، فسارعوا الى ذبائحكم فاسلخوها وألقوا بلحومها في النار مصلين ملبين داعين كيما تبدأ نفسا يلو تو وزوجته پرسفونيه ، ولا نسمعوا لأرواح الموتي أن تقرب أخصياتكم ، وذودوهم عنها بأسيا فكم حتى تلمحوا تيرزياس قادما

فليقاكم ويحدثكم ويوضح لكم ما غم عليكم من سبيلكم في هذا البحر انرجراج التلاطم بالأمواج » وسكنت ، وانبليج الصبح ، فنهضت تصالح من أثوابها وتضفي عليها من شفوفاها البيض كاندف ، وأنتثر فوق رأسها تلك الغلالة الرقيقة كالثليج . أما أنا فنهضت كذلك ، واكتسيت صدرى ودفارى ثم توجهت الى رفاق فأيقظتهم وحثتهم على الابحار من تونا كما رسمت سيرس . وقد هبوا جميعا إلا فتى يافما لم يكن له يدان في هذه الشدائد ، بل كان كل همه في كأس من خمر ينطرح بعدها وهو لا يسي شيئا . وكان اسمه البنور ، وكان قد غرق في سبات عميق فوق سطح القصر وقد أفزع ما سمع من جلجلة أسلحتنا فهب من نومه نحرورا متخاذلاً وساقته قدماه الى حافة السطح فزلت قدماه ، وسقط الى الأرض ، ودق عنقه ، فسبقت روحه الى هيدز .

وقلت لأصحابي لما اكتمل جمعهم : أنظنون أنا مبحرون الى أوطاننا ! ! كلا يارفاق ! فأمامنا رحلة طويلة شاقة الى هيدز ، حيث ينبغي أن تلقى تيرزياس النبي الصالح ليُعرف لنا ويقفنا على صفحة مما يطوى لنا الغيب ، بهذا رسمت سيرس ، وإنا لنصيححتها اساممون ! ، وخفقت قلوب إخواني ، ونظر بعضهم الى بعض ، ثم جلسوا يشدون شعورهم من الحسرة ، ولكنهم صدعوا أخيراً ، بعد إذ أيقنوا أن لا شيء غير هذا ينفعهم .

وانقلبنا الى البحر ، وكانوا ما يزالون يذرفون دموعهم ويصعدون حسراتهم . . . وفيما نحن ذاهبون ، كانت سيرس تسوق الى السفينة كبشاً عظيماً ونعجة سمورية . . . وإن كنا لم نرها قط ، ومنذا الذي تستطيع عيناه أن تريا ربة كريمة راثمة أو جائية إن لم تشأ هي أن تكشف نفسها ؟ »